الطَّبيعةُ في شعرِ ابن السَّاعَاتي (ت ٦٠٤هـ)

م.د. فارس ياسين محمد الحمداني *

تأريخ التقديم: ٢٠١٧/٩/٢٤ تأريخ القبول: ٢٠١٧/١٠/١٦

مثلت الطَّبيعة المنطَلَق الموضوعيَّ الأساس عند الشاعر (ابن السَّاعَاتي)[١] بما قدّمه من إبداع يتميز بالأصالة والعمق الذي تجسَّدت فيه عناصرُ الطَّبيعة وظواهرها الحية والصامتة ، فكانت ألفاظها ومظاهرها المتنوعة بؤرة التفاعل في نصّهِ الشعري ، إذ تشكلت الطَّبيعة في شعره بقصائد ومقطوعاتٍ تعطي انطباعًا للقارئ بأنه يُشاهد رسمًا أو لوحةً تتداعى فيها الصورة ، وتتغير الدلالات بتغير السياق والرؤية الجمالية . وقد عرضَ(ابن السَّاعَاتي)الطَّبيعة في أزمنةٍ، يرصد حركتها في أوقاتٍ متعاقبةٍ ، ويقدم رؤيته فيها بوحدةٍ موضوعيةٍ متكاملة ، ممثلاً لحدودها الجمالية ، لذا شكلت (الطَّبيعة) عنده موضوعًا شعريًّا له معطياتٌ وجمالياتٌ تنطلق من الواقع المرئي، الذي تحوَّل إلى لوحاتٍ شعرية بالكلمة والصورة .

* * *

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل .

(١) هو بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم بن هزدوز الخراساني ، ولد بدمشق عام (٥٥٣هـ) وتوفي بالقاهرة عام (٦٠٤هـ) ، تنظر ترجمته وأخباره في : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد ابن خلكان ت (٦٨١هـ) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ١٩٠٠م ، ج٣/ ص٣٩٥ ، معجم الأدباء – إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب ، شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ت (٦٢٦هـ) ، تحقيق : إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م، ج٣/ ص ١٣٠٨ ، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ، أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي ت (٦٨٥هـ) ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، دار المعارف – مصر / ص١١٨ ، ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق : أنيس المقدسي ، مط: الاميركانية ، بيروت ، ١٩٣٨م ، ج١ / ص ١٥-١٧ .

الطَّبيعة موضوعًا شعريًّا

الدراسةُ محاولةٌ نقديةٌ للكشفِ عن معالمِ البنيات الرئيسة المكونة للطبيعة في النص الشعري، و تناولت شعر الطَّبيعة عند (ابن السَّاعَاتي) قيمة وصفية جمالية في شعرهِ ، بوصفها مظهرًا مِن مظاهرِ الكون وجمالياته الحسية والمعنوية ، فالطَّبيعة ولوازمها تنتظم مادة شعرية مَلكتْ وجدان الشاعر وتدفقت شاعريته قيمًا محسوسة يهتزُ لها المتلقي ويطرب بمشاهدها الجمالية التي تُشكلُ واقعًا مجازيًّا يتحدُ مع ذاتية حاضرة ، بانتخاب صورٍ تستدعي كدًّا ذهنيًا ، ودقة فهمٍ ، وإمعان نظر بتجاوز المعنى الحقيقي بالشعري[١] ، فتعدُ الطَّبيعة (مصدرًا من المصادر المغذِّيَةِ للتجربةِ الشِّعريةِ موضوعيًّا وتشكيليًّا ، وشرطاً مِن شروطِ الحياةِ الإنسانيَّة)[٢] ، والموقف من الطَّبيعة مرتبط بالحياة بأشكال حسية، إذ يقوم الشاعرُ بتصوير الطَّبيعة تصويرًا شعريًّا قائمًا على التماثل والتداخل بين الفكرة والقيمة .

ويعبر شعر الطَّبيعة عمَّا حولنا مِن مناظر، ومشاهدات عاش الشاعر في ظلالها سواء كانت طبيعة حية كالحيوانات ، أم طبيعة صامتة كالأفلاك والأنواء والأشجار...، يزيده خيال الشاعر جمالاً ، تتمثل فيه نفسه المرهفة ، وحبه لها، واستغراقه بمفاتنها، يتخلله شعور نفسي يدركه الشاعر في منظر محدود يساعده على بناء فكرته ، مما يجعله رسامًا يتنقل بين الفكرة والصورة ، والفن والواقع .

ويدعونا شعرُ الطبيعية إلى المتعة واللذة ، ويوظف الشاعر فيه مظاهرها وعناصرها بلغتهِ الشعرية العالية ، فتكون قيمتها في الفكرة والهدف ، فتعد الطَّبيعة رافدًا عميقًا من روافد التجربة الشعرية ، ويتخذ الشاعرُ مِن مشاهدها أدوات لصياغة مشاعره ، وتبيان مكنونات نفسه ، فكانت قصائده التي عبر بها عن أحواله وأوضاعه النفسية التي يعيشها ، فإذا تغزل جعل الطَّبيعة إطارًا لغزله ، وإذا وصف وأفاض في وصف محاسنها ، وإذا

---

(١) ينظر : مقدمة القصيدة عند راجح بن إسماعيل الحلي، د. مقداد خليل قاسم الخاتوني ، بحث مقبول للنشر .

(٢) جَماليَّات الطَّبيعةِ في الشعرِ الموصليِّ في القرنِ الثاني عشر للهجرةِ ، د. شريف بشير احمد ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، جامعة الموصل ، أيلول ٢٠١٢م ، مج ١٢ ، ع ١ / ص ١٣٧ .

حنّ إلى بلادهِ تذكر طبيعتها ، فاستحوذت الطبيعة على كيانهِ ، ولعل التفاته إلى الطَّبيعة بألوانها ومناظرها الخلابة دليل على عنايتهِ بها ، وقد وظف (ابن السَّاعَاتي) الطَّبيعة في قصائده رموزًا للفرح والسعادة ، والقلق والتشاؤم (ليتجاوز بها حدود النظر والعقل والتشخيص المنفصل إلى ما وراء ذلك من عاطفة وشعور وتجاوب روحي عميق حتى يتم التعاطف بينها وبينه)[١] فتكون الطَّبيعة منبعًا ثرًا يلهم الشاعر وينمي خبراته الفنية ، وموردًا عذبًا ينهل منه .

وتنهض العلاقة بين الشاعر والطَّبيعة على (التشابُهِ والتآلُفِ والتداعي والتفاعُلِ الذهنيِّ والجماليِّ ، وتعكسُ فيضًا من سوانحِ النفسِ ، وخطراتِ الفِكر والتأمُّلِ ،..... ولأنَّ كلَّ ما يُحيطُ بالشاعرِ من موجوداتٍ جزءٌ حيويٌّ من عالمِ الطَّبيعة الذي يتحوَّلُ من صيغةٍ جامدةٍ إلى عوالمَ حيةٍ ناطقةٍ مُتحرِّكةٍ بالوعي واللغةِ والصورةِ بأطُرٍ مجازيَّةٍ ذات أبعادٍ موضوعيَّةٍ وفنيَّةٍ)[٢] ، لأنَّ عوالم الطبيعة المحيطة بالإنسان نعمة من الله عليه ومنفعة له ، وتجسيد لإحسانه إليه (فكل مظاهر الطَّبيعة مذللة للإنسان ومسخرة له ، وتسخيرها هو الصورة العملية لانتفاع الإنسان بها في مطالبهِ المادية والمعنوية والنفسية ، وإنّ جوانب هذه المنفعة والنعمة تتحقق بما يحصل من تآزر وانسجام بين عناصر الطَّبيعة السماوية والأرضية)[٣] فشعر الطَّبيعة يقوم على الوصف المادي، ويقوم الوصف المادي على النقل والتفصيل وضبط الشبه الحسي بين فكرةٍ أو حالةٍ نفسية من جهة ، ومشهد حسي أو صورة مادية من جهة ثانية ، وأحيانًا يتخذُ من وحدة التأثير النفسي بين فكرة في الذهن ومشهدٍ في الحواس أداتهُ في تصوير معالم الطَّبيعة .

---

(١) ألفاظ البيئة الطبيعية في شعر إيليا أبي ماضي – دراسة دلالية – ، فايز رسمي الشوامرة ، رسالة ماجستير ، جامعة الخليل ، بإشراف : د. يحيى عبد الرؤوف جبر ، ٢٠٠٧م / ص٤ .

(٢) جَماليَّات الطَّبيعةِ في الشعرِ الموصليِّ في القرنِ الثاني عشر للهجرةِ / ص ١٣٧ .

(٣) الطبيعة في القران الكريم ، د. كاصد ياسر الزيدي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد ، الجمهورية العراقية ، ١٩٨٠م / ص ٧٢-٧٣ .

أولاً:- الطَّبيعة الحية :-

وظّف الشاعر (الحيوان) لتشكيل الموقف الشعوري وتجسيده ، وربط الدلالة المنبثقة منه بمشاعر مكثفة ؛ ليجعل منه معادلاً موضوعيًّا لذاته ، وبنية فنية صالحة وصادقة لإقامة نوع من الترابط بين الداخل والخارج بالنسبةِ للذات الشاعرة (١) .

وعُني الشعر العربي بوصف الطبيعة الحية عناية فائقة ؛ لارتباطه بها في مجالات حياته كافة من غذاءٍ ونقلٍ وركوبٍ ....، وتشمل الطَّبيعة الحية الحيوانات الأليفة منها وغير الأليفة، فضلاً عن الطيور والزواحف والحشرات ؛ لذلك جعل الشاعر منها محطة في بعض قصائده مكونًا منها عالمًا مستقلاً بذاته ؛ يُرضي ذوقه الشعري بوصفه رافدًا موضوعيًّا من روافده الشعرية

١-الحيوانات الأليفة :-

اتجه الشاعر (ابن السَّاعَاتي) إلى وصف الحيوانات الأليفة لإرضاء شعوره ، وتلبية لحاجاتٍ نفسيةٍ ملحةٍ ، وأول ما نشاهده في شعره وصفه للناقة ، إذ قال فيها (٢) :-

(بحر الكامل)

صمتت رواعد سُحبه فكأنَّما ... ريعت قلائصُها فسرنَ بلا حِدا(٣)

وأجبتُ هاتفة الغرامِ ولو دعا ... طيف الخيال لما أجاب به الصدّى

كلفاً بهاجرةٍ جفاني طيفها ... فشقيتُ وسناناً بها ومسهدّا

نرى تجاوبًا عميقًا بين الإنسان / الشاعر وبين الناقة ، بمشاركة وجدانية يصور الشاعر فيها وقائعها وهيأتها وأعضاءها ويرى فيها نواحي الجمال ، وعبقرية الكون ،

(١) ينظر :- الحيوان رمزًا في الشعر العراقي الحديث ، د. رباب هاشم حسين ، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع ، بغداد – العراق ، ٢٠١٠م / ص١٣ .

(٢) الديوان : ج١ / ص ١٠١ .

(٣) القلائص : النياق الشابة ،القاموس المحيط ، مجدالدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، رتبه ووثقه : خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ، بيروت- لبنان ، ط٤، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م/ص ١٠٨٤

فجعل من الأفعال الماضية (صمتت ، أحببتُ ، أجاب) مرتكزًا لبناء صورته ووصفهِ للناقة القلوص ، موظفًا (التشخيص) عندما جعل سكوت الرعد وصورة السحب كالإنسان الصامت ، إذ أضفى عليها سمة إنسانية تدل على الهدوء والطمأنينة (صمتت رواعد سُحبه) قائلاً إن الرعود صمتت ، وتحولت السحب إلى (نياق) تسير بلا حداة ، دلالةً على المشي الهادئ دون الاضطراب بارتباط مباشر بين الناقة والصحراء (الهاجرة) بوصفها الوسيلة الوحيدة التي يمتلكها الإنسان ، ويستطيع أن يقطع تلك الصحراء الطويلة شديدة الحر، فتحمله إلى أحبائه وتنقله إلى دياره ، لكنه يبكي ويتحسر (جفاني طيفها) وهو يتذكر ، فبكاؤه وشكواه تجربة وجدانية ذاتية ، ولحظة حزينة ؛ لحنينه إلى الاستقرار والمقام الثابت ، في معاناة شعرية تمده بالمشاعر التي تمكنه من التنفيس عمّا يحتبس في نفسهِ من الأحاسيس وما يدور في ذهنهِ من أفكار ، فإذا به يشبه السحب المتناثرة في السماء بالنياق التي تسير بلا حداء وتترك أقدامها آثارًا على رمال الهاجرة ، ممثلاً ذلك بالصورة الحسية (السماع) (صمتت ، أجبتُ ، دعا ، أجاب) ليبين للمتلقي ما يعانيه من ألمٍ وحرمانٍ جراء الجفاء ، جاعلاً من الطَّبيعة الحية(الناقة) ومشيها في الصحراء المرتكز الأساس لنصه الشعري .

ولم تعد النوق حيوانًا صامتًا يقتصر اتصال الشاعر بها في الإطار النفعي ، بل اتصل بها اتصالاً نفسيًّا وشعوريًّا ، فعن طريقها بث شكواه ، ويبدو أن شواغل الشاعر وهواجسه متجسدة في الناقة، فجاء بذكر (القلاص) (الشابة من الإبل) [١] التي تكون في ريعان شبابها وجمالها ونضارتها، وهي الناقة الفتية التي تقطع حر الهاجرة ، وتترك آثارها وراءها دون الاهتمام بما تلاقيه من تعبٍ ومشقةٍ ، وهي مستمرة في السير ، ونرى اختيار الشاعر للناقة / الأنثى من الإبل لا الفحل لتكون عنصره المعتمد عليه في نصه الشعري لأن (إناث الحيوان أطوع وآنس وأجزع وأضعف) [٢] وليس الجزع والخوف المعروف ، لكن

(١) الحيوان في الأدب العربي ، شكر هادي شكر ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥/ ج١ : ص٣٨ .

(٢) سلوك الحيوان في الشعر الجاهلي – دراسة في المضمون والنسيج الفني – سعد عبد الرحمن العرفي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية ، بإشراف : د. عبد الله إبراهيم الزهراني ، ١٤٢٦هـ / ص٣٩٩ .

المقصود أنها لا تجرؤ على العناد والمخالفة ، وهي سريعة الطاعة ، سهلة الانقياد ، وكل هذا يوافق الطَّبيعة الأنثوية وينسجم معها ، فتلبي حاجات الشاعر النفسية.

ويذكر الشاعر النياق جاعلاً لها المعرفة والسماع سجيّةً، يقول[١]:- (بحر الكامل)

وإذا كـــلابُ الحـــي أهـــدت طارقـــاً جزعـــت عشـــار النـــوق مـــن أصـــواتها

حمـــرُ الـــذوائبِ والأثـــافي جُثَّـــاً سـودُ الحلـى فـي الشُّـهب مـن سـنواتها[٢]

إن استهلال الشاعر لقصيدته بأداة الشرط (إذا) يعني انه شديد التمسك بالطبيعة، بمعاينته لحركتين ترتبط إحداهما بالأخرى ارتباطًا جزئيًا، والحركتان هما فعل الشرط (أهدت) وجوابه (جزعت) فرسم الشاعر مشهدًّا للإبل ووصفها بالكلمات ، وأراد أن (يجسد مشهدًا من العالم الخارجي في لوحة مصنوعة من الكلمات) [٣] وأن يبين صورة الاضطراب والجزع التي تصيب النوق عندما تسمع نباح كلاب القبيلة فتعرف مجيء الضيوف وإنها ستنحر لهم ، مما يدل على كرم أهلها واستعدادهم لاستقبال الضيوف، لأن الطارق يأتي ليلاً (أهدت طارقًا) تدله الكلاب بنباحها على وجودهم ولو كانت سنوات قحطٍ وجدب (السنوات الشهب) فتكون نياقهم حمرا (حمر الذوائب) تجري دماؤها على المواقد فهم يمنعون الجدب بعطاياهم ، لتنشأ حالة من التوازن النفسي لدى المتلقي الذي يستقبل الصورة الشعرية ، وليضع الشاعرُ عنصر الطَّبيعة الحية مرتكزًا أساسيًا في نصهِ ، فالناقة لا تجزع لإكرام ضيف صاحبها لكنها تجزع لأنها من (عشار النوق) وهي (الناقة التي مضى على حملها عشرة أشهر) [٤] ، فتجزع خوفًا على وليدها لأنها ستذبح ،

---

(١) الديوان : ج٢ / ص ٢٥ .

(٢) الذوائب : ضفائر الشعر عند الإبل ، القاموس المحيط / ص٤٧٦ ، الأثافي : حجارة الموقد ، أو القطعة من الجبل ، القاموس المحيط/ص٣٣

(٣) الوصف في القران الكريم – دراسة بلاغية- ، د. موسى سلوم عباس الأمير ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط١ ، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م / ص١٩ .

(٤) الحيوان في الأدب العربي ، ج١ / ص٣٨ .

فصارت الناقة رمزًا للحياة في اضطرابها وقلقها مثل الحياة المضطربة في مختلف مجالاتها عندما تحين سنوات القحط ؛ لأن الفعل (جزعت) فعل إراديٌّ نفسيٌّ فيه حركة مضطربة وتوظيف الشاعر للعنصر الحي (عشار النوق) ؛ لأنها أنفس مالاً عند العرب وأغلا ؛ لكنهم لا يبخلون بها إكرامًا للضيف ، فهي مطيعة لصاحبها ، منقادة لأمره ، وإنْ كانت تبوح بالقلق بزفرة حزينة وآهةٍ دامعةٍ مبنية بالفعل (جزعت) لتُعِلم صاحبها ، فصارت العنصر الطبيعي الذي بنيت عليه القصيدة والمرآة العاكسة لموقف الشاعر .

وتوجه (ابن السَّاعَاتي) إلى توظيف (الخيل) في قصائده بوصفها عنصرًا فعالاً مِن عناصر الطَّبيعة الحية ، فنجده يقول[١]:- (بحر الخفيف)

ولكـــم ليلـــةٍ ركضـــتُ إلـــى اللـــذاتِ فيهـــا ركـــض الجـــواد الســـبوق

ونجـــوم الســـماءِ كالخيـــلِ فـــي الـــ حَلبـــة مِـــنْ ســـابقٍ ومـــن مســـبوق

عنصر الحركة من مقومات التصوير الشعري ، فالحركة التي يبثها الشاعر في نصه تتوقف على قدرتهِ الشعرية وإحساسه بمكنونات هذه الحركة ، وتوظيف (الخيل) بث الحياة في نصه الحياة والحركة الناجمة عن حركة (الجواد والسباق) إذ بث حركة مصحوبة بصوتٍ لا يمكن إغفاله ، ولم يكن الشاعر وحده من جرى إلى الملذات كالجواد السريع ، بل شاركتْهُ نجوم السماء في الحركة ، مستعينًا بالصورة البصرية برصده للمعان النجوم وظهورها واختفائها إيحاءً بمشهد تسابق الخيول ، فرفع قيمة نفسه برفع قيمة جواده ، وتشبيه ذاته به ، فوجد الشاعر في جوادِهِ صديقًا حميمًا ينجده في الشدة والرخاء ، وباهى به ، وراح الشاعر يخلد صفاته ولاسيما السرعة التي تدل على الصلابة بصيغة المبالغة (السبوق) للدلالةِ على السرعة ، فحقق الشاعر لقاءً وجوديًّا بين صورة ذاته وصورة (الخيل) التي كشفت عن الحقيقة والرؤيا الدقيقة للشاعر عن الخيل ، فكانت الوجه المشرق للشاعر الذي ينمو عنده الحس بالتسامي والرغبة في البقاء[٢]، مما يعكس صورة

(١) الديوان : ج١ / ص ٨١-٨٢ .

(٢) ينظر :- دلالات الوحدة في قصيدة الصيد الجاهلية ، عصام محمد المشهراوي ، جامعة وهران – الجزائر ، مجلة جامعة الأزهر ، غزة ، سلسلة العلوم الإنسانية ، مج ١٢ ، ع٢ / ص١٣٢ .

الحياة المليئة بالأفراح والملذات التي كان الشاعر يعيشها في أوقات من حياته القاسية المفعمة بالانكسارات والغموض والمآسي لكنها تنبئ عن تشبث الشاعر بالحياة ورغبته في الاستزادة منها بدلالة الفعل (ركضتُ) .

والظباء من الحيوانات المذكورة في شعر (ابن السَّاعَاتي) فجعلها رموزًا وتشبيهات تتجسد بها أوصاف المرأة، فنجده يقول[١] :- (بحر الكامل)

ظبـــيٌ وأحنـــاءُ الضـــلوع كِناســـهُ قمـــرٌ ســـوادُ قلوبنـــا هالاتـــه

ناشـــدتهُ عهـــد الحمـــى وســـالتهُ عـــن بانـــهِ فتحـــدَّثتْ حركاتـــه

نشـــوانُ لـــو كـــتم اللثـــامُ جمالـــهُ لزيـــارةٍ باحـــت بـــهِ نفحاتـــه

الظبيُ من عناصر الطَّبيعة وكائناتها الحية التي تحمل دلالاتِ الجمالِ والحركةِ والرشاقة والمتعة ، وظفه الشاعر لتجسيد رُؤاه وتشبيهاته في المرأةِ ؛ لإفراغ الطاقة النفسية والفنية الكامنة فيه ، فجعل المرأة كالظبي ، وأقامَ مِن الضلوعِ بيتًا للظبي ، وجعل مِنِ قلبه وتعرجاته مراحل القمر (هالاته) ، إذ أراد القول أن محبوبته ظبية ، ومكانها في القلب كامنٌ ، كما يكون الظبي في (كناسه) ، فتحولت (الظبية) إلى رمز جمالي معادل لجمال المرأة ، فهي مثل الظبية في جمالها ، فصارت تناسب الحالة النفسية للشاعر، فضلاً عن أنَّ المرأة تسعد بهذا التشبيه ، بسبب التكوين الطبيعي في طبيعة المرأة وحبها للمدح ، فوصف المرأة بالظبي يجمع بين الشبه الجسدي والسلوكِ عند الشاعر، والصورة التشبيهية تنبني على أركان صورية مختزلة من البيئة ذاتها وتتوارى في أركانها عناصر متعددة ومتفاوتة ، فالظبية متماهية في صفاتها مع أنثى الشاعر، وتكتسبُ الظبية مِن الصفاتِ الجماليةِ ما يجعل الشاعر متحفزًا لكي يصفَ المرأة ويشبهها بعنصر الطَّبيعة الحية ، فضلاً عن حركتها المستمرة التي تجعلها محط أنظار الرائي ، فهي ذات حركية مفعمة بالحيوية ، مرتبطة معانيها ودلالاتها بالجمال والطهر ، فجاءت الصورة تحمل في طياتها الدال الأنثوي للمرأة المثال .

---

(١) الديوان : ج١ / ص ٦٤ .

ويصفُ (ابن السَّاعَاتي) (الكلب) وصفًا يتناول فيه الصفات السلبية له ويسقطها على المهجوين ، إذ يقول[١]: (بحر الكامل)

قــد كانــت الفُصــحاء تــذكر حاتمــاً وتبـــثُ عنـــه فوائـــدا ومنائحـــا

والله قـــد أدنـــى لنـــا بـــك بعـــدما طــال المــدى منــهُ البعيــدَ النازحــا

حتـــى رأينـــا حاتمـــاً مـــن بعـــد ذا كَ المجد كلبًا عند بابك نابحا

عقد الشاعرُ مقارنةً شعرية بين (حاتم الطائي) المعروف بكرمه وجوده وعطاياه ومنحهِ، وبين حارس الباب المسمى (حاتم) ، واصفًا إياه بالكلب ، ومحولاً المقارنة بين (حاتم) حارس الباب وبين الكلب في الصفات التي يحملانها معًا ، فجعل منه الكلب النابح الذي يطرد الضيوف على عكس الكلاب النابحة التي تدل التائه في الفلوات والطارق في الليل إلى مكامن الجود و الكرم ، وجاء الفعل الماضي (رأينا) ليؤكد أن الزمن الذي قضاه الحارس في الباب طويلاً كبقاء الكلب أمام دار صاحبه نابحًا على الدوام ، فعبر الشاعر عن مبتغاه بالفعل (رأت) وهو فعل يراد به الرؤيا البصرية لا القلبية ، وهذا يعني أن المهجو له طبيعة النفور والافتراس والاعتداء طوال اليوم ، ولم يكن الليل نهايةً لنشاطه ، فهو ماضٍ في نباحه ، مثل الحارس الماضي في طرد الضيوف بانيًا صورة بصرية حسية لما يبتغيه بإدراك الأشياء ورؤيتها بأحجامها وأشكالها ، فصارت الصورة البصرية تنقل صورة الكلب الذي يمتاز ببعض بالصفات السيئة عند المهجو ، فهو قليل الحياء ، مبغض للغريب ، ذليل في الغربة ، شجاع في عقر داره ، مخادع عند الحاجة .

ولم يغفل الشاعر (الفيل) في قصائده موظفًا تناصًّا دينيًّا مع القران الكريم ، إذ يقول في قصيدة يمدح بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) مستوحيًا حادثة (أبرهة الحبشي) ت (٥٥٥ م) عندما غزا مكة قبل الإسلام بجيش تتقدمه الفيلةُ، إذ يقول[٢] :(بحر البسيط)

(١) الديوان : ج٢ / ص ٣ .

(٢) الديوان : ج١ / ص ٤٩ .

والبيـــت نكَّـــب عنـــهُ الفيـــل مكرمُـــةً لهـــــم فلـــــولاهُم مانكَّـــــب الفيـــــل

فضـــيلةٌ عُرِفـــت مـــن عبـــدِ مُطَّلـــبٍ والقـــوم صـــرعى كعصـــفٍ وهـــو مـــأكول

قصد الشاعر من توظيف (الفيل) الإشارة إلى غارة الأحباش التي سميت بعام الفيل، إذ جعل من (الفيل) رمزًا للهلاك لا يقف أمام الحق ولا يصمد (فلولاهم ما نكب الفيل) ، فجاء ذكره بوصفه الحيوان الضخم الذي لا يصمد أمامه شيء ، ومع ذلك فقد تعرض للهلاك بسبب وجود بني عبد المطلب في تلك الديار المباركة ، مستفيدًا مِن قولهِ تعالى ((**أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأصحَابِ الفِيلِ**)) [١] و(الفيل) لم يكن مألوفًا في بيئة العرب الصحراوية، لذا يذكره مستفيدًا من القران الكريم ، ليعمق دلالاته ويقويها ، وليحقق الأصالة والنجاح ، فصار أهل الكفر والنفاق بوجود سيد الكائنات (محمد) (صلى الله عليه وسلم) كقشور الحبِّ المأكول الذي عصفت به الريح، فأهلكوا (والقوم صرعى كعصفٍ وهو مأكول) .

إنَّ وجود الكعبة المشرفة كان سببًا في صد جيش الفيلة عن مكة وأهلها ، والمخاطب يعرف أن الشاعر يقتبس من القران الكريم ، وكان الشاعر ينظر إلى الفكرة التي يريد معالجتها من جوانبها المتعددة ، فذكره للفيل وأصحابه مثال واضح للأقصوصة في تهديده للمكذبين، فكانت القصة تطييبًا لخاطر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتسليته ، وتحقيرًا وتذليلاً لـ(أصحاب الفيل) و سخرية وتهكمًا بهم .

ووظف الشاعر عناصر الطَّبيعة الحية مادةً له في نصوصه الشعرية وموضوعاته المختلفة ، فجاء ذكر (القرد) عنده في سياق الهجاء والتهكُّم والسخرية ، إذ يقول[٢] :- (بحر الكامل)

عاثـــتْ فكـــلُّ دمٍ ومـــالٍ ضـــائعٌ أيـــدي ولائـــك يـــا فـــلانَ الـــدينِ[٣]

(١) سورة الفيل ، آية ١ .

(٢) الديوان : ج٢ / ص ٩ .

(٣) قوله (فلان) هنا كناية عن الاسم الحقيقي .

لـــو كنـــت فـــي زمـــنٍ تقـــادم عهـــده   لـــذُكرت فـــي طـــه وفـــي ياســـين

وتظـــنُّ انـــك ذو جمـــالٍ بـــارعٍ   والقـــردُ أحســـن منـــك فـــي التكـــوين

قصد الشاعر بمشهده الشعري (المعاينة) أي : الإبصار بالعين أو بالقلب ، فمشهده تتوافر فيه الصورة والحركة ويعمل على نقلها إلى ذهن المتلقي ، إذ وصف المهجو في شكله وسوء طباعه بـ (القرد) حتى انه يقول للمهجو لو كنتَ في زمنٍ أقدم من زمنكَ لذكرت في سورتي (طه و ياسين) بجعله من المنافقين المشار إليهم في السورتين ، فجاء الشاعر بتوظيف (القرد) مستثمرًا إياه في تشكيل موقفه الشعري بوصفه منطلقًا موضوعيًّا شعريًّا للهجاء ، فهذا النوع من الوصف (والقرد أحسن منك في التكوين) هو امتداد لسلوك شخصي مكروه من الشاعر ، فالمهجو مثل القرد في شكله وطباعه السيئة فكانت (العلاقةَ بين الطَّبيعة والشِّعرِ مُتداخلةٌ ، وذاتُ دلالاتٍ مُتغيِّرةٍ ، تحكُمُها الرؤيةُ والفكرةُ والموقفُ والتصوُّرُ ، وإذا كانت الطَّبيعة واقعًا مرئيًّا فإنهًّا في الشِّعرِ واقعٌ لغويٌّ يَستندُ إلى دلائلَ بصريَّة) [(١)] فرؤية المهجو هي رؤية للقرد ، بل إنَّ القرد أحسن منه تكوينًا، في مبالغة شعرية بالتحقير من شأن المهجوِّ .

٢- الحيوانات غير الأليفة :-

جاء وصف الحيوان غير الأليف بكثرةٍ في شعر (ابن السَّاعَاتي) بالتركيز على بعض صفاته، فكانت الطَّبيعة الحية توحي للشاعر بالمعاني والصور الشعرية لإظهار الدقائق والتفاصيل وبيان إحساسه الداخلي، فالوجود الحيواني في الطَّبيعة هو انعكاس رؤيوي لأثر البيئة ، والشاعر ابن بيئته ، يبث فيها الحركة والحياة دائمًا ، فالشاعر مندمج مع الطَّبيعة ، التي جعلها رافدًا عميقًا من روافد التجربة الشعرية ، وأكثر ما دار في شعره من ذكر الحيوانات غير الأليفة هو (الأسد_ الليث) فنجده يقول مادحًا [(٢)] :- (بحر السريع)

---

(١) جَماليَّات الطَّبيعةِ في الشعرِ الموصليِّ في القرنِ الثاني عشر للهجرةِ / ص١٤١ .

(٢) الديوان : ج٢ / ص٢٠ .

كالليـــثِ لـــم يَقفْـــر معرَّسُـــهُ مـــا دام مـــأهولاً مـــن الشـــبل

يسـمو البنـاءُ علـى الأسـاسِ وطيـ بُ الفـرع محمـولٌ علـى الأصـل

وأعـــاد يـــومَهُم كـــأمسِ وليـــ ثُ الغـاب لا يُفضـي علـى ذُحْـل

أبقـــى لقـــى أُسْـــدَ اللقـــاء فمـــا أبقـــى وفلَّـــلَ حِـــدَّة الفَـــلِّ

ذكر الشاعر الأسد بوصفه رمزًا للممدوح ، موظفًا الصورة التشبيهية خدمةً لمعانيه الشعرية (كالليث ...) لأنها تتعامل مع الواقع المحسوس بأبعاده ، وتكشف عن غاية مزدوجة تتمثل في استعمال الألفاظ المفردة بدلالة حقيقية واستعمالها مؤلفة بدلالة صورها ، فساعدت عناصر الطَّبيعة الحية الشاعر على رسم صورة تشبيهية قائمة على مصادر الطَّبيعة ، بإيجاد علاقة بين عناصرها وموضوع شعره ، فممدوحه كالأسد ، داره معمورة دائمًا (لم يقفر معَّرسُهُ) بوجود الأشبال فيها (مأهولاً من الشبل) وهو منصور على أعدائه ، ولا ينام على ثأرٍ مثلما لا ينام الأسد على الثأر (لا يفضي على ذحل) وجعل الجيوش منهزمة أمامه ، فالشاعر من خلال المشهد يشبه ممدوحه بعنصرٍ حيٍ من الطَّبيعة ؛ لأنه دليل الفخر والشجاعة ، فجعل من ممدوحهِ في مهامه كالأسد وما يلقى على عاتقهِ في أثناء المطاردة والصيد من التعبِ والمشقة والقدرة ، فجعله أهلاً للقيادة ، فالأسد رمز للقوة والسيطرة، وله صفات مستندة إلى البأس والقوة وشدة البطش بالفريسة ، كما أن توظيف (الأسد) وهو من عناصر الطَّبيعة الحية يؤجج القصيدة الساكنة بالحركية المستمرة ، وهو يدلُّ على كائنٍ بذاته ، لكن صفاته وحركاته تتغير بتغير لحظات تأهبه واستعداده وفي النص الشعري جاء بديلاً موضوعيًا عن الممدوح ، فكان الكائن الطبيعي الحي قناعًا لغويًّا جماليًّا مؤقتًا يقنع به الشاعر ممدوحه في كل معركة واقعيةٍ كانت أو متخيله[١]، فيذكر مفاخر ممدوحه وبسالته في المعارك بالمقارنة والتشبيه في الفعل والصفة مع كائنٍ من عالم الطَّبيعة الحية ، مستحضرًا (معرسه) – معرس الأسد – دلالة على

(١) ينظر :- جَماليَّات الطَّبيعةِ في الشعرِ الموصليِّ في القرنِ الثاني عشر للهجرةِ / ص١٦٠ .

الحصانةِ الماديةِ والمعنويةِ ، والاستعداد الدائم لملاقاة ما يطرأ عليهم ومواجهته، فكان الأسد هو التعبير الحقيقي للحركة والاستمرارية .

ومن الحيوانات غير الأليفة التي جاء ذكرها في شعر (ابن السَّاعَاتي) (الذئب) فهو لم يكن بمعزل عن الوصف الشعري للطبيعة الحية عند الشاعر، يقول فيه[1]:(بحر الكامل)

مَـــنْ للكـــريمِ إذا انتحـــاهُ دهـــرُهُ ظلمـاً ومـن للخطـب غيـرك ان عـرا

عاثـت ذئـاب القـوم فـي سـرحي ولـو لا أنـت هـاجوا عنـد ذاك غضـنفرا

فـاكفف ظـلام الظُّلـم عـن سـاحي فزنـ دُ العدل مـا بـين الـورى بـك قـد ورى

يمتلك الشاعر وعيًّا يمكنّهُ من إدراك العمليات الخفية التي تدور في نفسه كي تتحول إلى نشاط شعري حيوي، فجاء نصهُ طلبًا من الممدوح أن يخلصهُ وينجدهُ مما هو فيه من الظلم فضلاً عن الحاجةِ إلى المساعدة ، فَمَنْ حوله كالذئاب في الشراسة والغدر ، ولولا ممدوحه لأصبحوا كالأسود في ساحاته (ولولا أنت هاجوا عند ذاك غضنفرا) بادئًا نصّهُ الشعري بالاستفهام الذي وجد فيه متنفسًا للتعبير عما يختلج بداخله ، فقد لحقت به هموم ومشكلات من المحيط الذي يعيش فيه (من للكريم ....، ومن للخطب ...) فشبه بعض الناس ممن حوله(بالذئاب) فجعل من الذئاب رمزًا للإنسان الغادر، ثم يتحول نصّهُ إلى صيغة الأمر بدلالة فعل الأمر (فاكفف) طالبًا من الممدوح أن يرفع الظلم عنه ، فقد أثقل كاهله وأضنى جسده ، جاعلاً من الطَّبيعة الحية موضوع القصيدة الرئيس ، متوسلاً إلى الممدوح أنْ يجعله يعيش إنسانًا كريمًا عزيزًا لا تؤثر فيه ظروف الحياة القاسية ، ولا تقلل من قيمته ، ولا يركع لمن تسلط عليه من البشر وأن يحتفظ بكرامته ، بعيدًا عن الذئاب البشرية ، أهل الشراسة والغدر.

(١) الديوان : ج٢ / ص٢٢ .

٣- الطيور الجارحة :-

فتحت كثرة (الطيور) في الطَّبيعة أمام الشاعر بعدًا إضافيًّا في تكوين أفكاره بالأخيلة والصور ، إذ ألهمته مشاعر القوة والسيطرة والحنين والعطف ، وحركت في نفسه هواجس التشاؤم والخوف والقلق ، منها الطيور الجارحة ولاسيما (الصقر) ، فهو يفخر بنفسه ويجعلها كالصقر تطير به عاليًّا ، يقول[١] :- (بحر الكامل)

طلبـــوا ففـــاتهمُ الـــذي أنـــا قائـــل كـــالنجمِ يبعـــد عـــن يـــدِ المتطـــاول

فهـــم البغـــاثُ متـــى ســـموا لمُنيفـــةٍ بسَـــقتْ مُنُـــوا مـــن منطقـــي بأجـــادل

إنَّ تشبيه الشاعر نفسه بالصقر أحد أركان الفخر بنفسه ؛ لأنَّه يستجيب إلى حاجةٍ ملحةٍ في ذاته ، يعبر بها عن مشاعره ، فشبه منطقه لقوته بالأجدل ، مستعينًا بالنجم والصقر دلالة على الاستعلاء والفخر، وشبه منافسيه ببغاث الطير لا قدرة لهم على الارتفاع إلى شأوه المنيف ومكانه العالي ، ، فجاء الشاعر بـ (الأجدل) لكونه أقوى أنواع الصقور[٢]، يحسُ بما يجري حوله ، فجعل الشاعر نفسه كالصقر الأجدل تبدو عليه علائم القوة والحزم ويعودُ نفسه على تحمل الصعاب والمشاق فهو يرتاد الأماكن العالية من الأرض دائمًا ، فالشاعر عقد مقارنة لبعض أبناء عصره ولنفسه بالفعل (طلبوا) فهو فعل إنساني إرادي قصدي ولدّ في نفوس الآخرين الحاجة في الوصول إلى مرتبة الشاعر في سموِّ المنطق وعلوه .

ويتخذ الشاعر من الطيور الجارحة رمزًا للقوة والبطش والإقدام ، فنراه يصف (النسر) في جو السماء دلالةً على الاستعلاء ، يقول[٣] :- (بحر الكامل)

صـــحِبوا بهـــا حـــوت الكواكـــبِ عائمـــاً والنَســـرَ فـــي جـــوّ الســـماءِ مُحلقـــاً

---

(١) الديوان : ج٢ / ص٢١٨ .

(٢) الحيوان في الأدب العربي ، ج٢ / ص١٩٣ .

(٣) الديوان : ج١ / ص٧١ .

حيـــثُ المطايـــا كالســـفين ويمُّهـــا كنـــدى صـــلاح الـــدين عـــمّ وطبقـــا

يصنع الشاعر من عناصر الطَّبيعة الحية مشاهد ولوحات عن ممدوحيه ويجعلهم رمزًا للفخر، فنص الشاعر يجود بفيضه وموضوعه على سجيته الشعرية ، ويلبي حاجات الشاعر النفسية ، فقد ذكر اسم ممدوحه صراحة في البيت الثاني وهو القائد (صلاح الدين الأيوبي) فجعله كالنسر المحلق في السماء ، دلالة على علو مكانته ، فسلاحه قوي وهو يقوى بقوة بدنه والعرب تسميه (عافيات الطيور) [١] وهو من أقوى الطيور ومن سباعها، وتوظيف الشاعر للنسر لبيان قوة الممدوح وفضله وسيطرته ، وتتجلى قدرته بتوظيف عناصر البيئة الطبيعية من حوله داخل نسيج قصائده ليجعل منها صورًا حية متحركة فيألفها ويتصورها المتلقي وحاول الشاعر تقريب تلك الصورة إلى الأذهان باستخدام حرف التشبيه (الكاف) مرتين (كالسيف) و (كندى) ليجعل العلاقة بينهما وثيقة وشديدة الاتصال وليرسم صورة بصرية يبتغي من ورائها تمثيل تصور ذهني خاص بالممدوح (صلاح الدين) له دلالته وقيمته ، وهذه الصورة البصرية لا تقتصر على الرؤية فحسب ، بل تمتزج وتتضافر بما تعطيه من آفاق الرؤية العقلية من دلالات وقيم فنية .

ويمضي الشاعر مفتخرًا بنفسه وبقومه ، موظفًا (العقاب) العنصر الحي في الطبيعة، فيقول[٢] :- (بحر الطويل)

وكـــل جـــوادٍ ســـابحٍ تحـــت رايـــة ولـــيس همـــا إلّا عقـــابٌ علـــى صـــقر

وفـــيٌّ مـــارنَّ الخطّـــي مـــنهم حميـــة أبـــت أن ينـــام المـــرء مـــنهم علـــى وتـــر

إذا وشـــجت أيـــدي الكمـــاة متونـــه فللـــه كـــم صـــدْرٍ يُحطـــم فـــي صـــدر

إنّ الطَّبيعة الحية من مصادر الشاعر في التعبير عن مشاعره ، التي جعلها معادلاً موضوعيًا لمعانيه ومقاصده في نسيج نصوصه ، فهو وقومه لا ينامون على ظلم

(١) وصف الطبيعة في الشعر الأموي / ص ٢٠٦ .
(٢) الديوان : ج١ / ص٢٩٣ .

، ولا يتركون ثأرًا لهم حتى يأخذوا حقوقهم ممن اغتصبها أو حاول الاعتداء عليهم (أبت أن ينام المرء منهم على وتر) فوظف (العقاب) دلالةً على الرفعة والعلو ، فهو من الطيور الجوارح المعمرة ، فجعل (العقاب) مشبهًا به ؛ لأنه يحلق في كبد السماء ، و ينقض مسرعًا فتضحي صورته في العين فريدة لا نظير لها في السرعة حتى يخالها الناظر حجرًا ملقى من السماء فترجح كفته دائمًا ، ففرائسها تهابها أشدّ الهيبة ؛ لشدة بطشها ، وضخامة حجمها ، وتقع من نفوس البشر موقعًا رفيعًا لما فيها من أمارات السيادة والسيطرة ، ولما تختص به من القهر والغلبة (حتى أن سباع الطير تحيد عنها) [١] فتوظيف (العقاب) دال على الفخر والقوة والبطش والسرعة .

٤- **الطيور غير الجارحة (الأليفة) :-**

وظف الشاعر (ابن السَّاعَاتي) الطيورَ الجارحة دلالة على القوة والبطش ، ووظف بعض الطيور الأليفة دلالةً على الحنين أو الشوق أو الشؤم أو الفراق ، والطيور التي وظفها في قصائده قريبة من بيئته الطبيعية ومن الإنسان ؛ لذلك جعلها مرتكزًا لنصوصه الشعرية ، ومن البديهي أن يحصل التعاطف الذي تثيره هذه الحيوانات في نفسه ويكون التجاوب الذي عبر عنه بما يستطيعه ، فكان هذا العناء الذي تمثل في نوح الحمائم ، إذ يقول[٢]:

(بحر الطويل)

فكم مُدنف في الحي ينشدُ معلماً أَلا شدَّ ما تجني علينا المعالمُ

تميل لشكوانا الغصون تعطفاً وتندبنا في دوحهنَّ الحمائمُ

جعل الشاعر من الغصون المتحركة في الأشجار غصونًا تتعاطف وتتمايل وتتحركُ لتشارك الشاعر في شكواهُ ، إذ تندب الحمائم معهم وتبكي على حالهم ، فالحمام طائرٌ يألفه الناسُ ، ويقترن ذكره بالبكاء والنواح ، وتُثيرُ في بكائه ونواحه شجونهم وتهيج فيهم لوعة الفراق، والنوح الذي تعلنهُ الحمائم (وتندبنا في دوحهنّ الحمائم) هو المكافئ الخارجي

(١) سلوك الحيوان في الشعر الجاهلي – دراسة في المضمون والنسيج الفني –/ ص ١٧٨ .
(٢) الديوان : ج١ / ص٥٥ .

لانفعال الشاعر الداخلي ولحزنه وألمه ونوحهِ وشكواهُ ، وكأن ما تعلنه الحمائم ينسجم مع ما يكنهُ الشاعر في نفسه ويلبي حاجاته ، فصارت العلاقة بين (الحمائم) وبين الشاعر علاقة تعاطف قائمة على المشاركة الوجدانية التي تربطهما معًا ، فنوح الحمائم له بُعد نفسي يثير شعور الإنسان / الشاعر ؛ لذلك يضعها موضع المشاركة معه في شكواه وحزنهُ للتنفيس عما بداخله وما يؤذيه ، وهو شعور داخلي يتضاد مع رغبات النفس الإنسانية ، فحاول الشاعر أن يرسم صورةً عن مشكلاته، فانفجر بالشكوى مصورًا همومه بالشعر ، راسمًا معالمها بالكلمات ؛ فرسم لوحة شعرية نابضة بالحياة والحيوية ، وجعل من غصون الأشجار والحمائم إطارًا عامًا لموضوعه الشعري .

واستثمر الشاعر الطيور الأليفة لتشكيل موضوعِهِ الشعري وتجسيده وربطه بالدلالة المنبثقة منه بمشاعره ، فيقول موظفًا الطيور المغردِّة في قصائده[١] : (بحر البسيط)

وانهــض لأيامــك اللاتــي تُســرُّ بهــا فإن مضى يومُ لهوٍ عنكَ لم يؤُب

والطيــرُ فــوقَ فــروعِ الأيــكِ صــادحةٌ صدح المشوقِ إلــى أحبابــه الغُيــبِ

يمكننا التعامل مع بنية النص بوصفها شبكة علاقاتٍ لفظية اقتضتها الدلالة التي تخرج به إلى مهمته التأثيرية في المتلقي، إذ جاء الشاعر بفعل الأمر (انهض) للإبانة وهو يدعو إلى الاستمتاع بالمسرات وأيام اللهو؛ لأنها إنْ مضت فلن تعود ، مشركًا (الطيور) الفرحة ، فالفعل (انهض) فعل إنساني حركي يستلزم الإرادة ، فاجتمع فيه أمران أولهما الطلب، وثانيهما الإباحة للاستمتاع بتلك الأيام الجميلة ، فنلحظ في صورة الحيوان الأليف رافدًا جماليًّا وموضوعيًّا وطبيعيًّا ، فالطيور فوق فروع – الأشجار – صادحة تمتلك صوتًا جميلاً حسنًا، فجعل من صوتها الذي يشجو يمثل صوت العاشق البعيد تعبيرًا عن محبوبته الغائبة عن الأيام الخوالي التي ذهبت ، فحاول الربط بين الماضي والحاضر، موظفًا طاقات الطَّبيعة الحية في الطيور المغرِّدة ، فجعلها مضربًا للمثل في طلاقة اللسان وحسن الصوت لتضيف الانشراح والبهجة والسرور إلى سامعيها .

(١) الديوان : ج١ / ص٧٣.

ونجد عند(ابن السَّاعَاتي) توظيفاً لطائر (الغراب) فجعله رمزًا للتشاؤم ، إذ يقول[١] :- (بحر الكامل)

كـــلُّ يصـــحُّ إذا تصـــحُّ حياتـــه إلا النســيم يصــحُّ ســاعة يمــرض

كـــم مـــن غُـــرابٍ للقطيعـــةِ أســـود فيـــه يطيـــر بـــه جنـــاحٌ أبـــيض

أدى التكرار وظيفةً إيقاعيةً في النصِّ ، إذ منحهُ نسقًا داخليًّا معبرًا عن ذات الشاعر، بوصفه قيمةً صوتية تكمن في تكرار الفعل(يصحُّ ، تصحُّ ، يصحُّ) فجميع أسراب الغربان سود تسعى إلى الحياة ، فجعل الشاعر (الغراب) رمزًا للتشاؤم ، وجعل من نعيقه نذيرًا للبعد ودليلاً للفرقة ، وصورة الغراب في النص مردها التشاؤم الذي تولد في نفس الشاعر، والثنائية الضدية بين الألوان (الأسود و الأبيض) أخذت بعدًا إنمائيًّا في جمل الشاعر الشعرية ، واللافت للنظر أنَّ ايجابية البياض تفوَّقت عند الشاعر ليدعو نفسه ومن حوله إلى ترك التشاؤم وعدم الاستسلام له ، فكانت(للغراب) القدرة على استدعاء معاني الشؤم ، والصفات التي يصح جعلها علامة الفراق والألم حاملاً الدلالات السوداوية ليدخل عنصرًا أساسيًّا في صورة الغربة والحزن[٢] ، فكانت صورة الغراب المعبر الأساسي عن معاناة الشاعر النفسية .

٥- الزواحف والحشرات :-

تطرق الشاعر إلى أنواع من الزواحف والحشرات في قصائده ليبين حالة إنسان ما بذكر سلوك ذلك الحيوان وماله من صفاتٍ ، فالحيوانات تعتمد في سلوكها على الغريزة ، وتثور في داخلها ألوان من الانفعالات تتناسب مع المثيرات التي تواجهها أو الحاجات التي تتحرك في نفسها ، فنرى الشاعر يصف بعض حسادّه من حوله بالأفاعي والعقارب ، إذ يقول[٣]:- (بحر الكامل)

---

(١)الديوان : ج١ / ص١٥٥ .

(٢) ينظر : الغراب في الشعر الجاهلي ، علي عبد العزيز علي ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية ، بإشراف : ا.د. إحسان الديك ، ٢٠١٢م / ص٩٣ .

(٣) الديوان : ج٢ / ص٦٥ .

وكحيـــةٍ أو عقـــربٍ فـــي خـــدّها أبـــدًا يُســـيءُ فَعَالُهـــا وتقبَّـــل

تُحيـــي إذا مـــا باشَـــرتْ فـــم عاشـــقٍ وإذا تُلاحـــظُ مـــن بعيـــد تقتـــل

جعل الشاعر الأفعى والعقرب رمزًا للإنسان المسيء في أفعاله وأقواله ، فكان شكلهما وما يحملانِهِ من السم الزعاف باعثًا للهلع والرعب في النفوس ، وكانت صورتهما تقترن بصورة الإنسان الذي يؤذي من حوله ، فحوَّل الشاعرُ الواقع المادي المحسوس المتمثل بالأفعى والعقرب إلى واقع نفسي وشعوري صادر من أعماقه ، فالعضة واللسعة واللدغة التي تتميز بها الأفاعي والعقارب مليئة بالسموم القاتلة ، وكذلك المرأة المتخيلة في ذهنه ، جميلة في نظره ، لكنها تحولت إلى أفعى وعقرب بالاقتراب منها أو لمسها .

واستوقفت (النحلة) الشاعر بوصفها عنصرًا من عناصر الطَّبيعة في قصائده ، فقال فيها[١]:- (بحر الكامل)

مـــالي أُلام علـــى الغـــرام وســـكرهِ ولقـــد شـــربتُ الخمـــر مـــن حاناتهـــا

منعـــت لواحظُهـــا اللمـــى وكـــذا حمـــا ةُ النحـــلِ تمنـــع ريقهـــا بحماتهـــا

يرسم الشاعر صورة جمالية للطبيعة موظفًا فيها (النحل) فتحولت الذات الشاعرة من الوجود الإنساني إلى كائن آخر متمظهر بالنحلة[2] ، فحضور النحلة يثير في المتلقي ذائقة العسل ، فيصبح النحل عالمًا حيويًّا جماليًّا في نسق شعري منظم ، إذ شبه لمى الحبيب بالشهد ، وجعل الألحاظ كحماةِ النحلة تمنع من يريد اجتناءه ، فكانت المرأة المدللة في مخيلة الشاعر وذاكرته كتلك النحلة ونتاجها ، فهي ممنعةٌ على من يريد الاقتراب منها ، إلّا إذا أصر على ذلك (وكذا حماةُ النحل تمنع ريقها بحماتها) فكانت هذه الصورة مشبهًا به ، إذ لا يحصل الشاعر على مبتغاه بسهولة ، وصلة الطيب

(١) الديوان : ج٢ / ص٢٤ .

(٢) ينظر :- جَماليَّات الطَّبيعةِ في الشعرِ الموصليِّ في القرنِ الثاني عشر للهجرةِ / ص ١٦٧ .

بالحواس والنفس وثيقة فالإنسان يستلذ بما هو طيب حسيًّا ونفسيًّا[1] ذلك أنَّ التلذذ الحسي لا ينفك عن التلذذ النفسي .

ويمضي الشاعر موظفًا الكائنات الحشرية مشيرًا بها إلى بعض جوانب حياته ، أو جاعلاً منها رموزًا في شعره ، وفي ذلك يقول[٢] :- (بحر الطويل)

وماســـت قنـــاهم فـــي الأســـنة عـــزّةً تثنـي غصـون الـدوح فـي يـانع الزهـر

كـــأن علـــى أعطـــافهم مـــن دروعهـــم عيـون الـدَّبا أو فوقهـا أرجـل الـذر[٣]

اتخذ الشاعر من عيون الجراد وأرجل النمل صورًا يفيد منها في توضيح ما حوله ، فاتجه إلى الفخر بقومه وبجيشهم القوي الصامد ، فهم حريصون على الدفاع دائمًا ومستعدون للقتال ، وعيونهم لا تنام (عيون الدّبا) وهم كثرة كسواد النمل ، فاستقى الشاعر صورته من بيئته ومحيطه ، فهو يوظف الحشرات توظيفًا يرى في بعض صفاتها حسنة، فعيون الجراد لا تنام ، والنملة لا تتوقف عن السير والبحث عن رزقها طوال اليوم ، فوجود هذه الحشرات ويقظتها دليل على وجود الحياة واستمراريتها ، فهو مشهد تتوافر فيه الصورة البصرية برؤية عين الجراد والحركة بوجود أرجل النمل ، وهو وصف لمشهد من الطَّبيعة أداته الكلمات .

ويلجأ الشاعر إلى عالم الطبيعة المتحركة بالتعبير والتمثيل ، فقال في الضب[٤]:- (الكامل الأحذّ)

وبغـوا مـع الـوحش الهوامـل فـي الـ بيـــداء واحترشـــوا مـــع الحِســـل

حتـــى كـــأن ديـــارهم خلقـــت مـــذ كـــنَّ أطـــلالاً بـــلا أهـــل

(١) ينظر : الطبيعة في القران الكريم /ص ٩٠-٩١ .

(٢) الديوان : ج١ / ص٢٩٤ .

(٣) الدّبا : الجراد ، القاموس المحيط/ص ٤١١ ، الذر : صغار النمل ،القاموس المحيط /ص ٤٦٧

(٤) الديوان : ج٢ / ص٢٠ .

يربط الشاعر بين(الوحوش) و(البيداء) وبين(الحسل) و(الأطلال) كأنها مجموعة متحدة ، وهي موجودة في بيئة الإنسان العربي ومرتبطة بعضها مع بعضٍ ارتباطًا شديدًا ، فذكره لـ (الأطلال) يمثل الرابطة الوثيقة التي تربط الشاعر بماضيه ، وحيوان (الضب) حيوان بري صحراوي زاحف ؛ لذلك جعل الشاعر من فراش (الضب – الحسل) فراشًا لقومه ، وجعل من (الضب) حيوانًا يكتسب الصفات الجمالية بإشراكهِ مع الإنسان في بيئته ومنامه ، فتصبح الصورة ذات حركية تحرك سكون الصحراء وتفعم القصيدة بالاستمرارية والحركية.

كانت الطَّبيعة الحية رافدًا من روافد التجربة الشعرية عند (ابن السَّاعَاتي) مندمجًا فيها اندماجًا كليًّا ، متخذًا منها مرتكزات لنصوصه الشعرية وتبيانًا لمكنونات نفسه ، وكانت ذاكرته تغذي شعره من عوالم الطَّبيعة وكائناتها بجملةٍ من التراكيب اللغوية والبلاغية ، حتى صارت من مكونات تجاربه الشعرية .

* * *

ثانيًا :- الطَّبيعة الصامتة :

يقصد بها رياض الطبيعة وجبالها وأفلاكها وبحارها وما بها من نسيم ورياح وأمطار، وأفاد الشاعر من مواهبه وقابلياته في تصويرها والتعبير عن سماتها وخصائصها ، فهو يعيش في تماس مباشر مع الطَّبيعة ، وتجاورٍ مستمر ، وله صلة مع ظواهرها، فصارت مظاهرها معادلاً نفسيًّا للشاعر في فرحه وحزنه ، وتشمل الطَّبيعة الصامتة عند ابن السَّاعَاتي (الأفلاك والأنواء والروضيات والمياه ومصادرها والتضاريس الأرضية) .

١- الأفلاك والأنواء :-

ويقصد بها الظواهر الطبيعية التي تحدث في الكون من حيث الزمان والدوران والظهور والاختفاء من شمس وقمر ونجوم وليل ونهار ... .

إنَّ الوجود هو الحياة والحياة هي التغيير ، والتغيير هو الحركة والحركة هي الزمان ، ولا وجود إلّا بالزمان ، وكل تصور خارج الزمان هو تصور وهمي[١] ، والزمان مظهر

(١) ينظر : الزمن الدلالي – دراسة لغوية لمفهوم الزمان وألفاظه في الثقافة العربية ، كريم زكي حسام الدين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر ، ط١ ، ١٩٩١م / ص٢٥ .

طبيعي صامت ومتغير ، يرسم لنا هيئة لا يلبث أن يمحوها ليبدع لنا صورة مكانها ، والليل أحد صور الزمان التي ذكرها الشاعر في شعره ، أضفى عليه نفحة مِن شعورهِ وانفعالاته الوجدانية وأعرب عن أحاسيسهِ وتأملاته وسهاده ووحشته فيه ، فقال عن الليل [1] :- (بحر الطويل)

خليلـيّ مـا بـالُ النجـوم كأنّمـا أبـى الليـل أن تسـري بـأفق كواكبُـهْ

تعـاظم واطغـوغى وألقـى بعاعَـهُ وأقبـل كـالبحر الـذي أنـا راكبـه

أهـابُ عواديـه وآمـلُ خوضَـهُ وكيـف يخـوض اليَّم مـن هـو هائبـه

إذا حـل ظهـر الأرض أولاهُ أشـفقت غواربهـا مـن أن تُقَـلَّ غواربـه

فلـو أنـه أمسـى خضـاباً لمعشـرٍ لسَّـر خضـيباً أن تشـيب ذوائبـه

إذا قلـتُ قـد ولـتْ وجـاوزت صـدورهُ أطلّـت علينـا كالجبـال مناكبـه

أضـل بهـا الأيـدي اللـوامس قصـدها مـن التيـه حتـى وفـر الـدّر حالبـه

ولـيس بمرجـوِ الصـباح وهـذه مشـارقُهُ مُسـوَّدةٌ ومغاربـه

ولـم أرَ مثـلَ الليـل طـوداً للاجـئ مهالكـهُ خُضَّـتْ بهـنَّ مطالبـه

ليل الشاعر بحر عميق يخشى ركوبه ؛ لكنه يهواه ، إذ رسم به للمتلقي لوحة ضوئية لونية، فالشفق كان الخضاب الذي يختضب به ، فالليل ألقى كل ما فيه من ثقل على صدر الشاعر (ألقى بعاعه) وبسبب سواد الليل ضلت الأيدي التي تحلب النياق فلم تمتد إلى قصدها (أضل بها الأيدي اللوامس قصدها ...) ، وقد طال هذا الليل الذي ألم

(١) الديوان : ج٢ / ص٣٣٣ .

بالشاعر مع أنه محبٌ له ، إلّا أن محبته للشمس والنور أكثر ، فراح يستأذن الصباح لعله يشرق ويبدد الظلمة ، ويقرُّ الشاعر في ختام أبياته أن الليل ملجأ كل هارب من هَمٍّ يلحق به ، فكان الليل الطويل ملاذًا له ، ورفيقًا له يبث إليه شكواه وهذا ما تعكسهُ نفسيةُ ابن السَّاعَاتي في رسمه لصورة الزمان والليل ، فكان الليل مرتبطاً بآلامه وأحزانه ومتاعبه ، حتى بات يرزخ تحت وطأة الليل ينتظر الصباح ؛ لأنه يجد فيه راحته وهدوءَهُ .

واعتنى الشاعر بالصباح والنهار ، وكان لهما حضور في شعره مثل الليل على الرغم من اختلاف نظرته إليهما ، فارتبط الصباح بمدلولات الفرج والحرية والأمل والنقاء والراحة النفسية ، إذ يقول[١]:- (بحر الكامل)

والليـل فضـفاض القمـيص وأنـت يـا شـمس الضُّـحى تسـعى بـنجم الكـاس

إذ للعيـــون علـــى القلـــوب ولايـــةٌ فالليـــث يحكـــم فيـــه ظبـــيٌ كنـــاس

فالساقي الموصوف بـ (شمس الضحى) لا يقل جمالاً وإشراقًا عن محبوبته ، فهو شمس الضحى التي فيها إضاءة وحرارة محببة للنفس وليست منفرة كشمس الظهيرة ، وبتوظيف الشاعر عبارة (فضفاض القميص) أضفى على الليل صفة الطول والاتساع ، فأحدث في صورته نوعًا من التناقض بجعلهِ شمسَ الضحى وضوء النهار تسير في عتمة الليل بصحبة النجوم ، ويمكنه أن يجعل الساقي بدرًا يسير في عتمة الليل بصحبة النجوم ، يلفتُ نظر المتلقي لجمال الساقي وإشراقه .

ولا يضحي (ابن السَّاعَاتي) براحته ، بل يطيل السهر مع صحبه إلى قبيل بزوغ الفجر، إذ يقضون وقتهم في اللهو والشراب ، إذ يقول[٢]: (بحر الكامل)

والصـبح يطلـب فـي الظـلام كلامـسٍ صـــدرًا يحـــاول فيـــه ســـرا مُضـــمرا

اسـحبْ ذيـول التيـه مـا سـاء العِـدَا وانهـــض إذا ســـر الـــولي مشـــمرا

(١) الديوان : ج١ / ص٩٠ .

(٢) الديوان : ج٢ / ص٣٣٥.

رسم الشاعر صورةً للصباح وهو يختلس النظر إلى الليلِ ليعرف سرًّا مضمرًا يخفيه ، وهو ما يوضحه توظيفه للفعل المضارع (يطلب) الذي أفاد الديمومة والاستمرارية ، فأضاف إلى صورتهِ عناصر الحياة ، وجعل من عناصر الزمن :(كالنهار والصباح والليل) مرتكزات لبناء صورتهِ الشعرية .

ووظف الشاعر (الشمس والقمر) ليجعلَ الطَّبيعة موضوعًا رئيسًا لقصائده ، إذ يقول [١] : (بحر الخفيف)

وكـــأنَّ السُّـــقاةَ أقمـــار ليـــلٍ سـائراتٌ تُـــدير شـــمس نهـــار

فقـــدودٌ فـــي نشـــوةٍ وجفـــونٌ فـــي فتـــورٍ وأوجـــهٌ فـــي احمـــرار

إن تخـالف فـي أنّهـا الشـمسُ فـانظر نُورَهـــا إذ خَبـــتْ علـــى الأقمـــار

شبه الشاعرُ (سقاة الخمر) بالقمر في الليل يبدد الظلام بضوئه ، فيصبح بين النجوم ملكًا تحفُّ به الكواكب ، فالقمر هو المميز في جوِّ السماء ليلاً ، والشمس هي المميزة نهارًا يشعُّ ضوؤها ونورها على الأرض، فجعل حركة الساقي مثل حركتي القمر والشمس في أثناء دورانهما في فلك السماء بدلالة الفعل (سائرات) فيجعل دورانهما كتعاقبهما دون توقف أو ملل لرسم صورة حسية بصرية عن (الخمرَه) فمشهد شروق الشمس في النهار (شمس نهار) مشهد حسيٌّ بصريٌّ يحشد الشاعر فيه طاقاته الذهنية لإدراك مدلول الصورة ، فسطوع الشمس يبعث الحياة والحركة ، فجسّم الشاعر أفكاره وخواطره بالمشاهد الطبيعية لتقريب الصورة إلى ذهن المتلقي فأوجد الشبه بين مادة الوصف (الخمره) وبين(الشمس والقمر) ليبين الصورة الشعرية بشكل لغوي يمكن للقارئ أن يدركه . ويوظف(ابن السَّاعَاتي) (النجوم) في رثاء أحد أبناء عصره ، فقال يرثي فقيه الشافعية (مســـــعود النيســـــابوري(ت٥٧٨هـــــ) ، إذ يقـــــول[2]:- (بحرالطويـــــل)

(١) الديوان : ج٢ / ص٢٦٥.

(٢) الديوان : ج٢ / ص٣٠٢.

لقد غاض بحرُ العلمِ بعد أخي العلم فكــلُّ حلــيمٍ بعــدَهُ عــازب الحلــمِ

هــوى نجمــهُ فالــدهر ليــلٌ لفقــدهِ وأيُّ اهتــداءٍ فــي الليــالي بــلا نجــم

ثــوى شــامخُ العليــاء وانهــال شامخُالــ حجــى وخبــتْ مــن ســعيه شُــهُبُ العزم

إنَّ تشبيه الشاعر للمرثي بالنجم دلالة على السمو والعلو والارتفاع ، فأصبح منظر السماء في الليل وقد رصعتها النجوم مؤثرًا في نفس الشاعر، فعكس الصورة على الفقيد الذي رثاه ، لبيان المكانة التي كانت له وفقدها بسبب الموت ، فاتخذ من النجوم وطبيعتها الصامتة دليلاً على معاناته ، فجعل من حاجات الناس إلى الفقيد كحاجة السائر في الليلِ إلى النجوم ليهتدي بها إلى طريقه مستخدمًا التوكيد بـ (قد) للدلالة على حتمية الغياب بالموت وإنَّ كلَّ عاقل ذهب عقله لهول المصاب (فكلُّ حليم بعدَهُ عازب الحلم) وصارت الدنيا سوداء (فالدهر ليل) لفقده ، فكان موته كالشهاب الهاوي إلى الأرض ، مستثمرًا تقنية الجناس بين (العلم ، والحلم) فأشاع في نصه نسقاً إيقاعيًا صوتيًّا يتناغم مع شدة حزنه ، بإحداث ضربات إيقاعية ونغمية واضحة ، وساعَدَ تكرار بعض الألفاظ (العلم ، نجمة ، نجم ، شامخ) على إيجاد نغمات تأخذ السامعين بإيقاعها ، كما أظهرَ التكرار لونًا من ألوان التنبيه على عظم المصاب (الموت) فكان جزءًا من التنظيم العاطفي يفيد تقوية النغم ويرسخه في الذهن .

وتطرق الشاعر إلى صورتي (السماء والأرض) متخذًا منها موضوعًا لقصائده ، فقال وهو يصف يومًا ماطرًا [١] :- (بحر الكامل)

أو مــا تــرى وجــهَ الســماء معبّســاً والأرض ضــــاحكةٌ بوجــــهٍ مُســــفر

وكأنمــا هِيــف الغصــونِ معــاطفٌ تختــال فــي ذبــل النبــات الأخضــر

(١) الديوان : ج١ / ص١٢٦.

وظف الشاعر تقنية التشخيص (وجه السماء) و(الأرض ضاحكةً) لتقريب الصورة إلى المتلقي قاصدًا وصف وجه السماء (معبّسًا) لأنها متثاقلة من كثرة الغيوم فيها ، فكانت الأرضُ (ضاحكة) بسبب قدوم الحياة والخير إليها بما تسقطه السماءُ من الغيثِ مشكلاً من الصورة البصرية (أو ما ترى) مشهدًا لتلك اللوحة المرسومة بالكلمات ، فكانت السماء دلالةً على الارتفاع والعلو وهي تمنح من كرمها للأرض ، واتسعت الأرض أمام اتساعِ رؤيةِ الشاعر لها عندما جعلها ضاحكةً وهي تستبشرُ بالخير والنماء ، فجعل الشاعر من صورتي السماء والأرض صورة للبركة والخصب والنماء والجمال.

ويتخذ الشاعر من (النسيم) رمزًا لتذكر أيامِ عشقهِ التي مضت ولن تعود، فيتعهد بتذكرها ، إذ يقول [١] :- (بحر الكامل)

فَسَل الصَّبَا عن عصر أيام الصِّبا إن كنت رمت لعهده تبديلا

لولا خيانات الزمانِ وأهلهِ ما كنتُ متَّخذَ النسيمِ رسولا

يتحسر الشاعر على أيامه الماضية ، ويحنُّ إلى الذكريات القديمة ؛ لكنَّ مشاغلَ الزمانِ ومصائبه أبعدته عنها، فاتخذ من (النسيم) رسولاً لإيصال أشواقه إلى ديار الأحبة والأهل ، فخاطب ريح الصَّبا ليجعلها سببًا لذكر أهله الظاعنين ، فرأى في (النسيم) تفاؤلاً لما يحمله من شوقٍ ومحبةٍ إلى الأحبةِ بهدوءٍ واعتدالٍ ، فكان (النسيم) طريقة لتفريج الهم وإزالة بواعثه ؛ لأنَّه الهواء اللطيف الذي تتحرك فيه الأشياء ببطء وقت الصباح ، تنتعشُ به النفوس وتبرد القلوب وتحمل الأشواق و المحبة وتمر بديار الأحبة ، وتداعب أزهارها ونباتها، فالنسيم الذي يحمل رسائل الشاعر إلى أحبته يحمل ردّهم فيزداد شوق الشاعر إليهم فكان إحساسه ببعد المسافة التي تفصله عنهم قويًا ومؤثرًا ، فغدت المشاركة الوجدانية بين الشاعر ومظاهر الكون مفعمة بخيال خصب رفعت هذه المظاهر من الموضوعات المجردة إلى كائنات حيَّة واعية تشارك الشاعر المشاعر والأحاسيس بحملها أشواقه ورسائله إلى الأحبة .

(١) الديوان : ج١ / ص٨٥ .

ويتخذ الشاعرُ من المظاهر الكونية الطبيعية متنفسًا له للتعبير عن مشاعره الداخلية ، فيقول مصورًا قلبه بالبرق [١] :- (بحر الكامل)

لـم تهـمِ سُـحب الـدمع بعـد جمـودِ إلّا وقلــبُ البــرقِ فــي الخفقــان

مــا بحــثُ بالشــكوى إليــه وانّمــا نســخت دمــوعي آيــة الكتمــان

كانت دموع الشاعر نتيجة الفراق كالسحب الماطرة ، وقلبه الذي يتفطر من الحزن ويتألم، كالبرق الذي يظهر لمعانه في جوِّ السماء الماطر ليلاً ، فيكون كلُّ شيء واضحًا في أثناء لمعانها للعيان بعد الفراق، ووجه الشبه بينهما السرعة ، فتصوير الشاعر لمشهد البرق يبدو معادلاً موضوعيًّا للحالة النفسية التي كان يعيشها ، والمتأمل في نسيج الوحدة الوصفية (وقلبي البرق) وبنائها المتماسكَ يلمس المهارة في استثمار الشاعر لمشهد خارجي ماثل في الطَّبيعة إرضاءً لحالة داخلية تغمر كيانه ووجدانه ، كما أن الشكوى تملأ قلبه ، فصارت الدموع التي تنهال منه ترجمانًا لتلك الشكوى ، راسمًا بها صورًا تعكس نظرته الكلية إلى الكون الذي يشاهده .

٢-الروضيات :-

مثلث الطَّبيعة المنبع الوافر للشاعر بالصور المليئة بالألوان الزاهية التي تحمل أجمل المشاهد وأروعها ، فزادت خياله جمالاً، وكانت صور الطَّبيعة تحاكيه ومن ثَمَّ تحقق رغبته في إيصال مبتغاهُ إلى المتلقي ، بالقدرة على تحقيق التناسب والانسجام والوحدة بين جمال الطَّبيعة وما فيها من الرياض والأزهار وبين حالته النفسية التي يمر بها ، وترتاح لها نفسه عند رؤية المناظر الجميلة ، فقال يصف الرياض التي رآها وسمع أنغامها، يقول [٢] :- (بحر الخفيف)

فســقى اللّــهُ ذلــك المنظــر الطلــ ــق وتلــك الآصــال والاســحارا

غُــدُرٌ تُخجــل الحيــا وريــاضٌ تبهــر الواشــي نرجسًــا وبهــارا

(١) الديوان : ج٢ / ص٢٢٢ .

(٢) الديوان : ج١ / ص٦٨ .

كـــم اعرنـــا منـــابرَ الـــدَّوْحِ ســـمعاً فحمِـــــدنا خطيـــــبهن الهـــــزارا

ونظرنـــــا إلـــــى الميـــــاه فكانـــــت كـــــالمحبين لا تُصـــــيب قـــــرارا

ورؤوسُ الغصـــونِ للطيـــر كـــالأو تـــارِ كـــم أدركـــتْ مـــن الهـــمِ ثـــارا

فهـــي لا تســـأل الغمـــام ولاتشـــتا ق كـــــــــالأرضِ كلهـــــــــا آذارا

يطلب الشاعر السقيا للرياض كي تستمر ببهجتها ونضارتها ، ففيها من الغدران والألوان والورود ما يبهر الناظر ، فضلاً عن أصوات البلابل المغردة (خطيبهن الهزار) فجعل أصواتها كصوت الخطيب بقوتها وجهوريتها ، إذ تؤنس السامع وتشد المستمع ، وإنَّ المياه التي فيها تنساب بين جداولها وفروعها حتى تبقى تلك الرياض مخضرة يانعة في شهر(آذار) شهر الربيع الذي يمتاز باعتدالِ الجوِّ واخضرار الأرض وانتشار الورود والأزهار مما يؤنس الإنسان، فكانت الطَّبيعة الروضية والشعر مظهرين من مظاهرِ الوجودِ الجماليّ والماديّ والمعنويّ ، فجاء شعر الروضيات إعادة تشكيل لا تفصل بين حركةِ الطَّبيعة وجماليتها ، وبين طبيعة الشعر بوصفه صياغة جمالية للفكرة خارج الذات الشاعرة [١] ، فحاول الشاعر أنْ يُصوِّرَ الطبيعة ورياضها ، فكانت الطَّبيعة مسرحًا مفتوحًا للتعبير عن مشاعره الذاتية ، يسيل فيها الماء بسهولةٍ ، فكانت الرياض سببًا في إضفاء الجمال والروعة بصورٍ خلابة جمعت النقل الحسي المباشر مع النزعة التشخيصية التي تبعث الأنس والبهجة بالطيور وتغريدها فصارت الصور المستمدة من الطَّبيعة تحاكي خيال الشاعر وتحقق رغباته .

(١) ينظر : جَماليَّات الطَّبيعةِ في الشعرِ الموصليِّ في القرنِ الثاني عشر للهجرةِ / ص ١٤٨ .

ويحتاج الإنسان إلى الثمار في حياته لكونها طعامًا له ، فيقتات عليها ، ويجني منها المنفعة المادية ، فضلاً عن أنَّ العينَ تتأملها وترتاح إليها لما فيها من ألوان مختلفة ، فقال الشاعر وهو يصف شجر الموز [١] :- (بحر المتقارب)

وأشـــجار مـــوزٍ نزلنـــا بهـــا فيـــا شـــكَرَ اللّـــهُ ألطافهـــا

حـــلا طعمهـــا ونمـــا عَرفهـــا لـــذائقها ومـــن اســـتافها

وإلّا قـــدودُ عـــذارى رقصـــن فظلّـــت تناقـــل أســـيافها

يتأمل الشاعر في الطَّبيعة تأملاً متصلاً بفكره وقلبه تغذيه حصيلة موضوعية يعيد بها صياغة ما تحويه من الجمال والطعم الطيب ، فجعل من ثمار شجر الموز جزءًا منشطًا ومحفزًا للبنية الموضوعية في القصيدة ، فيتجه إلى وصفها ، فهي ذاتُ ثمرٍ طيب وحلو ولها رائحةٌ زكية (ومن استافها) وإنَّها تتمايل بأسيافه مثل العذارى عند الرقص (وإلّا قدودُ عذارى رقصن) تعبر عن أحاسيسه في الحياة وما يدور حوله ، فكانت (الطَّبيعة مستودع الأسرار الجمالية التي نهل الشاعر منها) [٢] وصارت مرآة ترسم عليها الأشياء الداخلية وظلالها ، معبرًا عن عوالمَ وآفاقٍ بعيدةٍ يسمو فيها الخيالُ وتشرقُ الصورُ الشعريةُ .

ويوظف الشاعر الأزهار والورود بأنواعها وصفاتها في قصائده ؛ ليزيدها جمالاً وتأثيرًا في النفوس ، فهي من روافد الطَّبيعة وزينتها ، يقول[٣] :- (بحر الكامل)

نهبـــت منـــامَ العاشـــقين جفونُـــهُ فلـــذاك لـــيس يـــزال كالوســـنان

ذو وجنـــةٍ حمـــراءَ حـــول عـــذاره وكـــذا تكـــون شـــقائق النُّعمـــان

(١) الديوان : ج٢ / ص١٨٦ .

(٢) شعر الطبيعة في العصر المملوكي الثاني من (٧٨٤هـ – ٩٢٣هـ) / ص ٣٨ .

(٣) الديوان : ج١ / ص٢٥٩.

جاء الشاعر بمشهد (شقائق النعمان) ونقل صورة الورد من الواقع المادي إلى ذهن المتلقي وخياله ، فكانت بطبيعتها الحلوة تحاكي خيالَ الشاعرِ، فهي مِن أزهار الربيع تحمل بهاءً ونضارةً وتخلب الأبصار بألوانها الزاهية (ذو وجنة حمراء) فكان اللون الأحمر من المظاهر الواقعية ومحط عناية الشاعر بالألوان فوجد في لونها الأحمر الصورة المعبرة التي تكمل التشبيه وتمنحه القدرة على التعبير وتبرز الغرض المقصود ، وكانت رؤاه منبسطة كانبساط أوراق شقائق النعمان فشبه الخدود الحسان بمنظر (شقائق النعمان) تحملُ في خدودها ورودًا زينتّها ، وإنَّ احمرارهَا المنقط بنقط سودٍ جعلها محط تشبيهاته مما يدل على العلاقة الوثيقة بين الطَّبيعة وموجوداتها وخياله .

ومن الطبيعي أنَّ الشاعر يستحضرُ الربيع وجماله الخلاب ، فهو من أحب الفصول عند الإنسان لما فيه من حيوية ونضارة ، فيقول واصفًا الربيع[١] :- (بحر الكامل)

يـــا حبَّـــذا زمـــنُ الربيـــع ودوحـــهُ قيـــدُ النـــواظر بـــل عقـــالُ الأنفُـــسِ

وافـــاك يبســـم والغمـــامُ معـــبسٌ فاعجـــب لطلعـــة باســـمٍ ومعـــبّس

جُليـــتْ عرائِســـهُ فهـــمُّ قلوبنـــا واللهـــو بـــين مقـــوضٍ ومعـــرِس

أنفاسُـــهُ مـــن عنبـــرٍ وســـماؤهُ مـــن لؤلـــؤٍ وبســـاطهُ مـــن سُـــندس

يرسم الشاعر صورة متكاملة عن فصل الربيع ، جاعلاً من العناصر الحسية كالسمعِ والبصرِ واللمسِ والشم عناصر أساسية في إدراك جماله ، فيصف الربيع وأثره في بعث الحياة في الأرض مفضلاً زمنه على الأزمان بدلالة الفعل (حبذا) ؛ فرسم له صورة ترضي حواسه ، وأقام علاقة بين المطر والربيع فهما متصاحبان متلازمان ، وأجرى نوعًا من المقابلة بين حال الأرض وحال السماء فـ (الغمام معبس) دلالةً على قدوم النماء والخصب وسعادة الأرض ، كما أن الهمَّ ذاهبٌ واللهو مقيمٌ في فصل الربيع (جليت عرائسه ...) فأشاد الشاعر بجمال الطَّبيعة التي تبدو نجومُها متلألئةً كاللؤلؤ المتناثر ،

(١) الديوان : ج١ / ص٢٢٦ .

تفوحُ منه الروائحُ الزكيةُ (أنفاسه من عنبر) مما يلبي حاجاته النفسية ، إذ جعل الصور تخفي وراءها ظلالاً دقيقة من المعاني العميقة التي تدل على شخصية تتميز بعقلية مبدعة ، فكان فصل الربيع فصلاً جماليًّا عند الشاعر(ابن السَّاعَاتي) ؛ لأنَّه يستمتعُ فيه متعة حسية .

٣-المياه ومصادرها :-

المياه سبب حياة الإنسان وأساس وجوده ، ووجودها دليل على الخصب يجتمع عندها الناس ، ويقيمون حولها فتشعرهم بالتآلف وتملأ نفوسهم بالاطمئنان . وارتبط مفهوم الماء بالإحياء ؛ لذلك اتجه (ابن السَّاعَاتي) إلى ذكره في قصائده لتمنحه الحياة والحركة ، يقول مضمنًا البحر في سياق المدح [١] : (بحر الطويل)

فلــو قــدر البحــرُ الخضــمُّ لجــاءهُ بآذيــهِ مــن فــيض كفَّيــهِ يســتجدي

يتيــه الثــرى يمشــي عليــه تواضــعًا علــى المسـكة الـذفراءِ والعنبـر الـورد

شكل البحر رمزًا أساسيًّا في النص ، فكان الممدوح في كرمهِ وجودهِ كالبحرِ في عطاياه ، فيقفز البحر إلى خيال الشاعر ليعبر عن الكرم ، فلو تهيأ للبحر المسير لسار إلى الممدوح يستجدي منه ويطلب العطاء فرسم الشاعر صورة مفعمة بالحركة بدلالة الأفعال (لجاء ، يستجدي ، يتيه ، يمشي) التي عملت على تلوين النص بالحيوية وتوسيع دائرة الجمال في الرؤية بإيحاءات وتخيلات فكرية ونفسية تتحرك معها عواطف الإنسان ، فلم يكن البحر مجرد مسطح مائي ، بل بحث الشاعر في كنهه وأصله في تماهٍ روحي كامل ، مبينًا معطياته ؛ لأنه عالم متكامل يزخر بالحياة .

ويستثمر الشاعر الأنهار في رسم صوره عن معالم الطَّبيعة واصفًا نهر النيل [٢] :- (بحر الكامل)

وأمــا لهــذا النيــل أيُّ عجيبــةٍ بكــرٍ بمثــل حــديثها لا يُســمَعُ

(١) الديوان : ج٢ / ص٢٨٢ .

(٢) الديوان : ج١ / ص١٦٧ .

متنقـــلٌ مثـــلَ الهـــلال فـــدهره أبـــداً يزيـــد كمـــا يُريـــد ويرجـــع

يلقـى الثـرى فـي العـام وهـو مسـلّمٌ حتـــى إذا مـــا مـــلّ عـــاد يـــوّدع

وكأنمـــا هـــو والنجـــوم مواثـــلٌ فيـــهِ ونـــور البـــدر إذ يتشعشـــع

يصف الشاعرُ نهر النيل بالبكر ذات الحديث العذب الحسن ، واختياره للبكر في وصف النيل له صلة بتاريخ الفراعنة مع النيل وكيف كانوا يقدمون له كل عام فتاة من أجمل فتيات مصر لتكون عروسًا له ، وان النيل لا ينتهي أبدًا فهو كالهلال كلما نقص عاد واكتمل ، ثم يجعله ضيفًا يزور التراب عند فيضانه حتى إذا مله التراب عادَ أدراجه إلى ما كان عليه ، فكانت أبياته مفعمة بالمشاهد الحركية عن النيل ، فهي تجمع المنفعة والبركة والرزق بما فيها ، كما أنَّ الشاعر استثمر التشبيه بـ (كأنما) فكانت الصورة البصرية مع التشبيهية قد تعانقتا لتسهما في صناعة شعرية الصورة ، فالأداة (كأنما) كانت لها القدرة على إبراز الصورة واضحة للعيان ، كما أنَّ صورة البدر في نهر النيل ليلاً من العوامل المحفزة لشعوره ومسرحًا واسعًا لخياله وانفعالاته .

وكانت بعض الأماكن التي يتذكرها الشاعر، ويحنُّ إلى رؤيتها وتبقى في ذاكرته فيستحضرها في شعرهِ فيقول وهو يحنُّ إلى وادي (الأراك)[١]:- (بحر الطويل)

احـنُّ إلـــى وادي الأراك مـــن الحمـــى وهيهـــات مـــن وادي الأراك حنـــين

لقـد صـحَّ عنـدي بعـد نفحـة حـاجرٍ وشـــككتما أن النســـيم خـــؤون

أثار (وادي الأراك) في الشاعر حنينًا يتشوق به إلى زيارته ، فهو في حنين مستمر بدلالة الفعل الماضي (أحن) ، فكان حنينه حنينًا روحيًّا يعمق شعوره ، وكانت غاية

(١) الديوان : ج١ / ص٩٣ ، ووادي (أراك)هو وادٍ قرب مكة ، ينظر : معجم البلدان ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي ت (٦٢٦هـ) ، دار صادر – بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٥م ، ج١ / ص ١٣٥ .

الشاعر من ذكر (الوادي) بالذات بوصفه مناطق تستقر فيها القبائل وتقيم في مرابعها ، فضلاً عن أنَّ الوادي بطبيعته تتوفر فيه المياه ، فوادي (أراك) له وقع أثير في نفس الشاعر، كما أنَّ توظيفه لتقنية التصدير (احن إلى وادي الأراك ، وهيهات من وادي الأراك) ساعده على إيضاح موضوعه الشعري وزاد من الشحن الإيقاعي ، فتفجر الشاعر حنينًا ورغبةً في الرحيل إلى (وادي أراك) فأدى التصدير دورًا كبيرًا في تغذية النص إيقاعيًّا ودلاليًّا ليهيئ أنغامًا إيقاعية داخلية ؛ ليظهر لنا التصاق الشاعر بالمكان وحنينه إليه .

ويجعل الشاعر من (غدران الماء) أماكن للفرح بوصفها أماكن للخير والنماء ، يقول [١] :- (بحر السريع)

كأنمـــا الأفـــق طفـــتْ زهـــرهُ غـــديرُ مـــاءٍ باســـمٌ عـــن أقـــاح

فـــاخلع عـــذاريك فقـــد فرّكـــت غلائـــل المـــاء اكـــفُّ الريـــاح

الغدران أماكن لتجمع الماء ، يجتمع الناس حولها لوجود الكلأ ، وهي مورد الخصب والنماء وأماكن تهب الخير والبركة ، فيتجلى حب الطَّبيعة المائية عند الشاعر من خلال وصفه (للغدير) الذي أضفى عليه صفة إنسانية بالتشخيص ، فجعله مبتسمًا فرحًا ينبض بالحياة ، فكان ذكره لـ(غدير الماء) دلالةً على استقرار حالته النفسية ، ووسيلة إيحائية من وسائل تصويره الشعري عبر سعيه الدائب وراء اكتشاف وسائل تعبير لغوية يثري بها لغته الشعرية ويجعلها قادرة على الإيحاء ، فيبدأ بتحويل واقعه المادي المحسوس (الغدير) إلى الواقع النفسي والشعوري بفعل الأمر (فاخلع) ليصبح نصّه مشهدًا إنمائيًا للكلام السابق له ، فكانت غدران الماء من رموز الطَّبيعة ، بدلالتها التي تبعث على المنفعة ماديًّا ومعنويًّا .

(١) الديوان : ج ١ / ص ١٠٨ .

ونجد الشاعر يستخدم رموز الطَّبيعة وظواهرها في التعبير عن حالته النفسية فيوظف (المطر) تعبيرًا عن الحرمان الذي يعانيه من قلة الرزق ، إذ يقول [١] :- (بحر الطويل)

وأصبحتُ من بعد الثراء محلَّاءَ أشيم الحيا من مومضات المناصل[٢]

وحيداً من الخلّان والمال طامعًا وقد عزَّ طلٌّ ، في مُلثٍّ ووابل[٣]

كانت الأمطار والمياه مواردَ للرزق ، تملأ نفوس الناس واقعيًّا، وبؤرة التفاعل شعريًّا ف(الحيا ، الملث ، الوابل ، الطل) فتحت أمام الشاعر بعدًا إضافيًّا في تكوين أفكاره بشتى الأخيلة والصور، فصار حاله في يأس مستمر، وصار وحيدًا بعيدًا عن الأهل والأبناء والأصدقاء (وحيدا من الخلان) قليل المال مع انتشار الخير بكثرة الأمطار وتزايد النعمة ، فصور الشاعر نفسه ممنوعًا عن ورود الماء في إشارةٍ إلى قلة العطايا له ، مستخدمًا أسماء المطر كناية عن المبالغة في قلة المنح وانحسار موارد رزقه ، فوجد بظاهرة المطر خير تعبير عن شعوره وأحاسيسه ، فأشار به إلى الخير الوفير الذي يحيطه دون الحصول على شيء منه ، فجاء حديثه عن المطر مقترنًا بذكر أثره على الأرض ، فسقوطه يحيي الأرض ويجعلها خضراء نضرة ، وهذا انعكاس نفسي لما ترسخ في وعي الشاعر من أهمية الأمطار وفضلها على الحياة والأحياء .

ووظف الشاعر (الثلج) في قصائده ، فقال يصف الأرض بعد تساقط الثلوج [٤]:- (بحر الكامل)

غطى الثلوجُ الأرض فهي حمامةٌ بيضاء منها الجيدُ غير مطوَّقِ[١]

---

(١) الديوان : ج ٢ / ص ٣٥ .

(٢) الحيا : المطر وقيل (مطر الربيع) ، القاموس المحيط / ص٣٤١ ، مومضات المناصل : لمعان السيوف ، القاموس المحيط / ص ١٤٢١.

(٣) الملث والوابل : المطر الشديد الدائم ، القاموس المحيط / ص ١٢٣٨ / ص ١٣٧٧ ، والطل : أخف المطر ، القاموس المحيط / ص ٨٠٩ .

(٤) الديوان : ج ٢ / ص ١٤٩ .

فلـــذاك أصـــبح إذ أقامـــت راميًـــا قـــوسُ الغمـــام وراءهـــا بالبنـــدقِ

وقعت عينا الشاعر على الثلوج التي تغطي الأرض فشبهها بالحمامة البيضاء ، ثم جعل قوس السحاب راميًا يرميها بالبرد ليصطادها ، فصور نزول الثلج من السماء ووقوعه على الأرض كالحمامة البيضاء دلالةً على الصفاء والنقاء والمحبة والسلام ، فكان وصف الطَّبيعة عند الشاعر وصفًا حسيًّا ممزوجًا مع أحاسيسهِ ومشاعرهِ ، فوظف اللون الأبيض في مشهدٍ مِن مشاهد الجمال الطبيعي في يومٍ باردٍ لهُ دلالته وخصوصيته ؛ (لأنَّ اللونَ عنصرٌ من عناصرِ عالمِ الطَّبيعة المرئيِّ ، له قيمةٌ جماليةٌ في الشَّكلِ والدلالةِ ، وله مؤثراتُهُ الحياتيَّةُ والنفسيَّةُ المرتبطةُ بالإدراكِ الحسيِّ البصريِّ ، وله دلالاتٌ إيحائيَّةٌ – شعوريَّةٌ – ترتبطُ بذوقِ العصرِ ، وثقافةِ الشاعرِ) [٢] فتحركت الدالة اللونية دلالةً على التفاؤلِ والمحبةِ ، فكانت الصورةِ اللونيةِ المدركةِ بالبصر عنصرًا من عناصرِ التشكيل الجماليّ في الشعر ؛ لما تحققه للإنسان / الشاعر من متعةٍ مزدوجةٍ حسيةٍ وروحية تستنطق ما وراء التشكيل الحسي من عوالم تعكس ما يعتمل في نفس الشاعر المبدع .

٤– التضاريس الأرضية :–

كانتَ علاقة الشاعر بالطَّبيعة علاقة متلازمة متلاصقة فراح يصور بعض أجزائها ، ويصف ظواهرها ، مُضمنًا البعد الرأسي والأفقي لسطح الأرض في نصوصه الشعرية ، فذكر الجبال والهضاب والسهول والصحراء والسراب والرمال ، مستعينًا بها في رسم معالمه الشخصية ، معبرًا بها عن حالته النفسية المتغيرة ، فقال ذاكرًا (جبل قاسيون) في دمشق:–[٣] (بحر الطويل)

ولله ســـــفحا قاســـــيون وهَضـــــبُهُ ويـــا حبّـــذا أعلامـــهُ ومجاهلـــه

---

(١) في الديوان (غطت الثلوج) ولايستقيم البيت إلا بالشكل المثبت في المتن .

(٢) جَماليَّات الطَّبيعةِ في الشعرِ الموصليِّ في القرنِ الثاني عشر للهجرةِ / ص ١٤٨ .

(٣) الديوان : ج ١ / ص ٧٧ .

إذا المَحْــلُ هزّتــهُ إليــه التفاتــةٌ أُصــيبت بنبــل الغاديــات مقاتلــه

متــى وقفــت عيســي علــى حُجُراتــه فســائلها مــن دمــعِ عينــي ســائله

إنَّ الحديث عن (جبل قاسيون) يتيح للشاعر (ابن السَّاعَاتي) مجالاً أوسع للحديث عن ماضيهِ وتذكر أيام لهوه والحنين إلى أهله وأصدقائه وأحبائه فاتخذ منه رمزًا لمدينته (دمشق) فوجد في شعابه وهضابه الملجأ الأمين والحصن الحصين ، فجاء بالجبل دلالةً على الصمود والعلو والعز والثبات والرسوخ ، وحاول أن يمنحه إحساسًا وشعورًا من الإنسانية ، فالصورة المجسمة لجبل قاسيون ولدّت في نفسه البقاء والخلود ، فهو يحب كل شيء في (قاسيون) ويعزه ويتذكره بدلالة الفعل (حبذا) فشكل اسم المكان عند الشاعر عنصرًا دالاً يمتلك خاصية الاشتمال والالتصاق بالنفسِ الإنسانيةِ فـ (علاقة الشاعر بالمكان ذات أبعاد متعددة تستحضر الواقعي والخيالي والوهمي ، ويكفي أن الشاعر يعيش في المكان على مستوى الوجود الحقيقي ، ويسيح في المكان في عالمه الشعري ، فيستحضر المكان مِن المعرفة الحقيقية ويقيم لنفسهِ وجودًا فيه أو يعدل من صورة المكان الحقيقي كما يخترع المكان في الفن ويحتله بالوجود) [١] فكان لذكر الشاعر جبل (قاسيون) فاعلية كبيرة ومؤثرة في ذاته ، فالتجأ إلى تصويرهِ ليستمتع بهِ جماليًّا ، وليعقد بينه وبين الطَّبيعة في بلادهِ علاقة حميمة .

ثم يوظف الشاعر (السهول) رمزًا للمحبة والألفة وتذكر المحبوبة ، إذ يقول [٢] :-

(بحر الرمل)

طرقَــتْ ريَــح الصَّــبا مَيثــاءَ وهنــا فانثنــــتْ حاملــــةً أنبــــاء لُبنــــى

نقلــــت عنهــــا أحاديــــث هــــوى أفهمــتْ مــن غيــر أن تُســمعَ أُذْنــا

---

(١) شاعرية المكان ، د. جريدي المنصور الثبيتي ، شركة دار العلم للطباعة والنشر ، المملكة العربية السعودية ، ط١ ، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م / ص١٠ .

(٢) الديوان : ج ١ / ص ٩١ .

ذِكـــرٌ هاجـــتْ حنينـــا كامنًـــا واخـــو الشـــوق إذا ذُكـــرِ حنَّـــا

دشنت الأبيات هيئة الشاعر حال ذكره للهضاب (الميثاء) وهو يستشعر معالم الطَّبيعة التي تذكره بماضيه وأحبائه ، فبعد أن مرت رياح الصبا على ارض السهول الطيبة ليلاً ، نقلت إليه أنباء (لبنى) فذكرتهُ بحديثِ الهوى ، فعمد إلى تعزيز الطبيعة بمشهد (الهضاب) ، واتخذ مِن الطَّبيعة وتضاريسها وسيلة للإحساس بالمتعةِ واللذةِ والشعورِ بالجمال ، فأزاح الهمّ عن نفسهِ وجلا حزنه بلوحته الفنية المكتملة والمرسومة باللغة ، فكان يخاطب الريح ويذكر الهضاب ليجعل ذلك سببًا لذكر أهله الظاعنين عنه (طرقت ريح الصبا ميثاء ...) فكانت عاملاً يحرك مشاعره ، ويسترجع فيها ماضيه ويحنُّ إليه بصرخةً من الألم ؛ لشعوره بالبعد عنهم (ذكر هاجت حنينًا كامنًا) فولدّت في نفسهِ القدرة على القول الذي مكّنهُ من التنفيس عمَّا في داخلهِ مِن أحاسيس حبيسة .

وصور الشاعر الصحراء بلغتهِ الشعرية ، فقال فيها [١] :- (بحر الطويل)

لقـــد شـــهدتْ ضـــرَّاتها بجمالهـــا وقرّظهـــا أضـــدادها وخصـــومها

سَـرَتْ تقطـعُ البيـداءَ يهفـو سـرابُها وتستنشـق الأرواح تـذكو سـمومها

صور الشاعر الصحراء (البيداء) ذاكرًا (السراب) كنايةً عن ارتفاع النهار وشدة الحر، ليجسَد قوة الإرادة والعزيمة من خلال (البيداء) فكان للشاعر تداخل وتمازج وارتباط مع الصحراء ومصاحبتها حسيًّا ووجدانيًا، ليتخذها رمزًا ومعادلاً موضوعيًّا يُسقط عليها قضايا واقعه وعصره[٢] ، مستخدمًا أدوات تشكيله الفني التي تجعل موقفه إزاء الحياة والطَّبيعة بمثابة لوحة متكاملة تنطلق من رؤية عامة للحياة ، ولم يكن مفهوم الصحراء عند الشاعر يقتصر على المفهوم الجغرافي بل يتعداه ليشمل الظواهر والمعطيات المنبثقة منها فيكون لها التأثير المباشر على التجربة الشعرية ، وبيان الزمن في الصحراء مرتبط

(١) الديوان : ج ٢ / ص ١٨١ .

(٢) ينظر :- الصحراء في الشعر العربي السعودي ، يحيى احمد الزهراني ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الملك سعود ، قسم اللغة العربية ، بإشراف : د. احمد ابن صالح الطامي ، ١٤٢٥هـ/ ص ٣ .

بالمعاناة وما توحيه تلك البيئة من خوفٍ يلقاه السالكون فيها من التعب والضياع والمشقة لكنَّ الشاعر مستمر بالحركة والمشي فيها (سرت تقطع البيداء ...) فضلاً عن تدشينه للفظة (السراب) مقترنة بالبيداء التي يشير فيها إشارة واقعية إلى التضليل وعدم الاهتداء .

* * *

الخلاصة :

كانت الطَّبيعة عنصرًا بارزًا في تشكيلِ التجربةِ الوجدانية عند (ابن السَّاعَاتي) بأنواعها ومتعلقاتها الحسيَّة والمعنويَّة ، إذ اعتمد على السرد القصصي في صور الطبيعة، واتخذ من حياتهِ الحافلةِ بالحوادثِ مادة ثرة ليعرض ما يصادفه من صعوبات ومشاكل ومتاعب وكان الشاعر ينظر إلى الفكرة التي يريد معالجتها من جوانِبها المتعددة ليمنحها الإطار المتكامل ، ثم يجمع أشتاتها ليعد منها هيكلاً عامًا لنصّهِ الشعري، أما الحادثة فكان يعطيها أهمية كبيرة ويمنحها شكلاً خاصًا ، ويمهدُ لها بسلسلةٍ من الوقائعِ التي يسرد فيها مايجعلها مقبولة /مستساغة ، موظفًا في وصفه عناصر التشويق المتمثلة في الحركات التي كان يمنحها لعناصر الطَّبيعة وظواهرها ليجعلها مرتكزاتٍ أساسيةً في بناءِ صورهِ الشعرية ، فجاءت مشاهد وصفه للطبيعة تعبيرًا أداتهُ الكلمات ليعمل على نقل الحدث الواقعي إلى ذهنِ المتلقي بالسرد ، فكانت صور الطَّبيعة تحاكي خيال الشاعر ومن ثَمَ تحقق رغبته في إيصال مبتغاه إلى المتلقي وكانت موجوداتها مجالاً خصبًا لخيالهِ ، يرسم لوحاتها مستعينًا بظواهرها راصدًا لحركاتها تلبية لحاجات نفسية له ، يدعو إلى المتعة أو اللذة ، أو يعبر فيهِ عمَّا يعتريه مِن همومٍ يضيق بها صدره ، لتصبح لها القدرة على تحقيقِ التناسبِ والانسجامِ والوحدة ، ومن خلال دراستنا لشعر الطَّبيعة عند الشاعر وجدنا شعره مستمدًا من صميم البيئة التي وجِد فيها وعاش في أكنافها. فكانت صور الطَّبيعة تبنى على أركان صورية مختزلة من بيئة الشاعر ذاتها ، فتتوارى في أركانها عناصر متعددة ومتفاوتة ، فشكلت الطَّبيعة بجوانبها موضوعًا شعريًّا من الواقع المرئي والمسموع ، ثم تحولت إلى مشاهد و لوحاتٍ جماليةٍ مرسومةٍ بالكلمةِ والصورةِ بإبداع الشاعر وخياله .

Nature in the Poetry of Ibn Al-Saati (died 604 A.H)

Dr.Faris Yaseen Mohammed Al-Hamdani

Abstract:

Nature represents the standpoint of the poetry of lbn Al-Saati. This is evident through his innovation which is characterized by originality and depth for it represents nature's vivid and latent elements and phenomena. In his poetry, the various forms of nature and its register were the focus of interaction. Nature is also, manifested in his poetry in many excerpts that interrelate aesthetically with other topics to give the reader the impression as if looking at a painting in which colors reformulate, and their purport varies as to each context and vision.

Likewise, Ibn Al- Saati shows the beauty of nature in correlated times and observes nature's movement in successive times. He presents his perspective towards nature in a complete objective coherent. Finally, nature was an inspiration for the poet as it is the beautiful visible side of venality. He turned his visions in to beautiful paintings rich in diction and imagery.